تاريخ العلاقات الدولية

مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثانية

ليسانس ل م د في العلوم السياسية

من إعداد الدكتور عبد النور منصوري

2024

كلية الحقوق والعلوم السياسية

قسم العلوم السياسية

جامعة محمد بوضياف المسيلة

محاضرات فى

تاريخ العلاقات الدولية

مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثانية

ليسانس ل م د فى العلوم السياسية

من إعداد الدكتور عبد النور منصوري

السنة الجامعية: 2024.2025

كلية: الحقوق والعلوم السياسية

قسم: العلوم السياسية

المقياس: تاريخ العلاقات الدولية

الفئة المستهدفة: السنة الأولى ليسانس

السداسي الأول

الرصيد: 6

المعامل: 3

الحجم الساعي: 4 سا ونصف

اعداد الاستاذ: الدكتور عبد النور منصوري

البريد الالكتروني: abdennour.mansouri@univ-msila.dz

مقدّمة

في إطار دراسة ليسانس العلوم السياسية، تتعاضد مجموعة من المقاييس طوال ست سداسيات لتكوين طالب متمكن من مختلف أبعاد الظاهرة السياسية. وفي السداسي الثالث من المسار، يدرس الطالب مقاييس تؤهّله لاختيار تخصصه في السنة الموالية كتاريخ العلاقات الدولية. فما هو هدف دراسة تاريخ العلاقات الدولية؟

يحتاج طالب العلوم السياسية إلى التوغّل بثبات في النظرية السياسية، لكي يكتسب القدرة على تحليل الواقع السياسي والظاهرة المدروسة. وأكبر سند له في ذلك هو التاريخ، فقد كان الكثير من المفكّرين السياسيين مؤرّخين، وينطبق ذلك على العلاقات الدولية. فعرض الحوادث التاريخية وتعقيداتها يهدف إلى تفسيرها وفهمها واستيعابها وربطها بالجانب النظري، وفق بيير رينوفن.[1] كما أنّ دراسة تاريخ العلاقات الدولية تعين على فهم ارتباط الأحداث التاريخية ببعضها وتأثّرها بالقوى المحرّكة لها.

ويمتد تاريخ العلاقات الدولية لآلاف السنين، ويتضمن تطورات وتحولات كبيرة في العلاقات بين الدول والمجتمعات. ويمكن تقسيمه إلى عدة فترات رئيسية:

[1] بيير رينوفن وجان باتيست دوروزيل، تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة(فائز كم نقش)، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط 3، 1989، ص 5.

1. العصور القديمة: في هذه الفترة، كانت العلاقات الدولية تتم عبر التجارة والحملات العسكرية، فقد كانت الحضارات القديمة مثل اليونانية والرومانية تتفاعل مع بعضها البعض من خلال التجارة والحروب.

2. العصور الوسطى: خلال هذه الفترة، تأسست العديد من القوانين والمعايير التي تنظم العلاقات الدولية، وكانت الإمبراطوريتان البيزنطية والإسلامية تلعبان دورًا كبيرًا في هذه الفترة.

3. العصور الحديثة: بدءًا من النهضة ومرورًا بالثورة الصناعية، بدأت العلاقات الدولية تتطور بشكل كبير خاصة بسبب نشأة الدول الحديثة وتطور القوانين الدولية.

4. العصر الحديث: في القرن العشرين، شهدت العلاقات الدولية تطورات كبيرة مع ظهور الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي والتحولات السياسية والاقتصادية الكبيرة.

وتاريخ العلاقات الدولية لا يعني استحضار الأحداث في سرد قصصي تتشابك أحداثه في ذهن الدارس، بل هو زاده في دراسة تاريخ العلاقات لاكتساب الإطار التطبيقي المساند للإطار النظري للعلاقات الدولية.[2] ويشمل تاريخ العلاقات الدولية الأحداث الدولية،

[2] نفس المرجع، ص 6.

بالتركيز على أهمّ تواريخها وتفاصيلها، والمعاهدات الدولية، وتطوّر العلاقات الدولية المبني على تلك المعاهدات.[3]

اكتسبت العلاقات الدولية حيوية خاصّة بعد نشوء الدولة القومية، وكانت القارّة الأوروبية مسرحها الأساسي، لذلك يتمّ التركيز على الأحداث المؤثّرة بداية من مؤتمر واستفاليا، في مرحلة النزاع بين بقايا امبراطوريات القرون الوسطى والدول القومية الناشئة، وهي الممتدّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ضمن السياق الأوروبي، ازداد حجم التناقضات بين مختلف الفواعل الدولية وأدّى إلى مأزق حقيقي مثّلته الحربان العالميتان الأولى والثانية، اللّتين أثّرتا على المشهد الدولي للقرن العشرين بقيام نظام دولي جديد، قائم على الصراع بين المعسكرين الغربي بزعامة الولايات المتّحدة الأمريكية، والشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي.

لكن في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، وانهيار جدار برلين والمعسكر الاشتراكي، عرفت العلاقات الدولية تحوّلاً دراماتيكياً نحو نظام الأحادية القطبية بزعامة الولايات المتّحدة. لكنّ هذا النظام لم يعرف الاستقرار، حيث أخذ ينحو نحو نظام متعدّد الأقطاب. وقد عرفت المشهد الدولي ظواهر جديدة أبرزها العولمة، والإرهاب وتصاعد تأثير الفواعل غير الدولتية.

---

[3] نفس المرجع، ص 9.

أمّا العالم العربي، فقد تأثر بتطوّرات المشهد الدولي، فقد كان ضحية الأطماع الاستعمارية للقوى الدولية في نهايات القرن التاسع، بفعل انتقال التنافس الدولي من الإطار الأوروبي إلى خارجه، فوقع تقسيم العالم العربي الذي كان في معظمه جزءاً من الدولة العثمانية بموجب اتفاقية سايكس بيكو. كما شهد القرن العشرين استقلال الكثير من الدول في كلّ من إفريقيا وآسيا وظهور العالم الثالث الذي أنتج حركية كبيرة في العلاقات الدولية جرّاء سياسات البناء المنتهجة، ومن ذلك نشوء حركة عدم الانحياز.[4]

ولإعطاء نبذة مختصرة عن تاريخ العلاقات الدولية، سنتناول بداية مفهوم النظام الدولي لوضع منطلق مفاهيمي يساعد في تأطير تصور واضح للعلاقات الدولية. وفي المحور الأول سنعرض للعلاقات الدولية في الإسلام، بداية من تأصيل العلاقات الدولية في الإسلام، والعلاقات الدولية في العهد النبوي، والخلافة الراشدة، والدولة الأموية، والدولة العباسية، والأندلس والدولة العثمانية. والهدف من إدراج هذا المحور هو قراءة تاريخ العلاقات الدولية في إطارها الإسلامي بما يساعد على فهم الكثير عن واقع الدول العربية والإسلامية في عصرنا الحالي. كما يمكن من ربط الدراس في جامعتنا بموروثه التاريخي ومناقشته بمنهج علمي مقارن.

---

[4] سعد حقي توفيق، **تاريخ العلاقات الدولية**، جامعة بغداد، العراق، 2009، ص 10.

أمّا المحور الثاني، فسنعرض فيه إلى الفترة الممتدة من اتفاقية واستفاليا 1648 إلى معاهدة فيينا 1815، لدراسة محتوى الاتفاقية، والثورة الفرنسية 1789 والحروب النابوليونية. بينما يتناول المحور الثالث الفترة الممتدّة من معاهدة فيينا إلى الحرب العالمية الأولى، ويشمل مؤتمر فيينا، والوفاق الأوروبي، وانبعاث النزعة القومية ورفض نظام فيينا، والوضع الدولي قبل الحرب العالمية الأولى.

ويتناول المحور الرابع العلاقات الدولية فيما بين الحربين العالميتين، ويشمل الحرب العالمية الأولى، والمسألة الألمانية، وعصبة الأمم المتحدة، والأزمة الاقتصادية العالمية 1929، والحكم النازي، ومؤتمر ميونيخ 1938. أما المحور الخامس فيتناول العلاقات الدولية في الحرب الباردة، ويشمل نظام يالطا، والحرب الباردة ومراحلها، بداية من التصعيد 1945-1962، والوفاق 1962-1975، والحرب الباردة الجديدة 1975-1985، وسقوط جدار برلين ونهاية الحرب الباردة.

ويتناول المحور السادس العلاقات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة، ويشمل ملامح الوضع الدولي الجديد، وحرب الخليج الثانية، وديناميكيات تفكيك الدولة/النزاعات الداخلية، وحلف الشمال الأطلسي وظائفه الجديدة. فيما يتناول المحور السابع العلاقات الدولية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، بما فيها دلالات الأحداث، والوضع في أفغانستان، واحتلال العراق.

مقاربة النظم الدولية المقارنة

عادة ما يرجع أسس قواعد العلاقات الدولية إلى حرب الثلاثين عاماً في القرن السابع عشر، أو عند نهاية الحرب العالمية الثانية في 1945. تطغى هذه النظرة الأوربية على السياسة الدولية، فالعالم الذي نعيشه اليوم صنعه الأوربيون على صورتهم. وإذا كانت أوربا مهمة في المشهد العالمي، فإنّها ليست كلّ العالم، فمن غير المعقول أن يبدأ تاريخ باقي العالم مع أولى خطوات المعمّرين الأوروبيين، ولا يمكن القول بأنّ الأوروبيين أدخلوا غيرهم إلى التاريخ، وإنّه من السذاجة القول بأنّ تاريخ أوروبا ينطبق تماماً مع تاريخ العالم.[5]

إنّ العالم متغيّر، ولم تعد لأوروبا وأمريكا الشمالية الدور الأساسي في السياسة الدولية كما في القرن الماضي. كما أنّ دورهما في المستقبل سيكون أقلّ أهمّية، وهذا ما يستدعي مراجعة التصوّر الأوربي للتاريخ العالمي. لذلك يقترح إيريك رينغمار مقاربة يدعوها "النظم الدولية المقارنة" حاول من خلالها تقديم رؤية متوازنة لتاريخ العلاقات الدولية، بعيداً عن المركزية الأوروبية. وقد ضمّن كتابه "تاريخ العلاقات الدولية: مقاربة غير أوروبية" نماذج من للعلاقات الدولية شملت العلاقات الدولية للصين القديمة، والهند القديمة، والخلافة الإسلامية، وامبراطورية المغول، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية وحركة الاستعمار الأوروبي.

---

[5] Erik Ringmar, *History of International Relations: A Non-European Perspective*. Cambridge, UK: Open Book Publishers, 2019, p 1.

ما هو النظام الدولي؟

ولكي ندرس تاريخ العلاقات الدولية لا بد من فهم النظام الدولي، فكل نظام بالمفهوم العامّ يتكوّن من وحدات تتصرّف مستقلّة عن بعضها، وفي نفس الوقت يؤثّر سلوك إحداها على الوحدات الأخرى. أمّا النظام الدولي فهو عبارة عن نظام مشكّل من وحدات سياسية هي الدولة عادة، تتصرّف باستقلالية عن الدول الأخرى، لكنّها مجبرة على مراعاة سلوك الوحدات الأخرى في النظام. يحدّد النظام الدولي بصفة عامة ما يمكن أن تقوم به الوحدات السياسية وما لا يمكن فعله.

يقترح رينغمار معايير لدراسة مقارنة للنظم الدولية تتمثّل في المؤسسات، والحكام والقيم الناظمة. ويضيف بأن عالم اليوم عبارة عن نظام دولي مصدره أوربا في القرن السادس عشر، لكنه انتشر إلى باقي العالم كنتيجة للكولونيالية الأوروبية في القرن التاسع عشر. وقواعد السياسة الدولية، والقيم والمؤسسات هي السائدة اليوم هي منتوج أوربي بامتياز. ومن أجل عقد المقارنة في النظام الدولي لا بد من دراسة النظم الدولية التي سادت قبل القرن السادس عشر.

تعتبر سيادة الدولة مثلاً مؤسّسة أساسية في النظام الدولي الأوربي، وذلك ينتج ممارسات اجتماعية وإدارية. وقد كان هذا النظام الأوربي عنيفاً بصفة مميزة مقارنة بسابقيه، ففي القرن العشرين وحده قتل حوالي مائة مليون شخص في حروب أوروبية. في حين لم

يكن الإقليم ضمن الدول الامبراطورية يلعب دوراً مهمًّا كما في نظام الدولة القومية اليوم، فامتلاك قطع ضمن المساحات الكبرى غير المنتهية في آسيا الوسطى أو إفريقيا لم يكن ذا أهمّية خاصّة.

المحور الأول: العلاقات الدولية في الإسلام

1- تأصيل أسس العلاقات الدولية في الإسلام

إنّ الأصل في العلاقات الدولية من المنظور الإسلامي هو السلم، بناءً على الآية الكريمة: "وإن جنحوا إلى السلم فاجنح لها وتوكّل على الله،"(الأنفال 61)، وقد طبّق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذلك في سيرته النبوية حينما صالح اليهود بموجب وثيقة المدينة، وفي صلح الحديبية. لكن ذلك بشرط تحقيق الأمن للدولة الإسلامية، أمّا إن تعرّضت للاعتداء، فإنّ الحرب تكون حينئذ واجبة بمقدار دفع الضرر وتحقيق الأمن، مصداقاً للآية الكريمة: "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً"(النساء 90).

إنّ الجهاد مشروط إذن بحماية النفس والدعوة الإسلامية، وما عدا ذلك تسعى الدولة الإسلامية لإقامة علاقات ودّية مع الدول المحيطة بها. وقد قسّم الفقهاء المجال الجغرافي للعلاقات الدولية إلى دار السلام ودار الحرب.

- **دار الإسلام**: هي الدولة التي تحكم بأحكام الإسلام؛
- **دار الحرب**: هي الدار التي لا يكون فيها السلطان للحاكم المسلم، ولا يكون بينها وبين المسلمين عهد.

ومن الفقهاء من أضاف لهذا التصنيف دار العهد، وهي دار لا تخضع لسلطان المسلمين، ولكنّها تعقد صلحاً مع الحاكم المسلم، فقد عاهد النبيّ صلّى الله عليه وسلم نصارى نجران على حمايتهم من أيّ اعتداءٍ من المسلمين أو غيرهم، وكذلك فعل الصحابي أبو عبيدة عامر بن الجرّاح مع أهل حمص، حين عاهدهم على حمايتهم من الرومان على مال يؤدّونه.[6]

2- العلاقات الدولية في العهد النبوي

لعلّ أهمّ العهود التي عقدها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو صلح الحديبية في 6 ه 638 م، التي أعطت إشارة الاعتراف بقيام الدولة الإسلامية المستقلّة، التي تسالم من يسالمها وتقاتل من يقاتلها. وقد فتح ذلك المجال للنبيّ الكريم لعقد تحالفات مع قبائل أخرى كانت تخشى من قريش كقبيلة خزاعة التي تحالفت معه مباشرة بعد الصلح، وهو أمر أعطى للدولة الإسلامية بقيادة النبي كيانها السياسي وقوامها الدولي.23

وقد حيّد هذا الصلح يهود خيبر، لأنّه منعهم من التحالف مع قريش لمهاجمة المدينة بعد غزوة الخندق، وأمّن حدودها من الجنوب والشمال، وهو ما جعل الدعوة الإسلامية تنتشر بسرعة كبيرة على عكس مرحلة ما قبل الحديبية. كما ضمن الصلح حرية تنقّل المسلمين بين المدينة ومكّة، فاطمأنّ الناس للإسلام فشمل كلّ جزيرة العرب.

---

6 نفس المرجع، ص 18.

ثمّ التفت رسول الله إلى التعاهد مع اليهود بعد التغلّب عليهم عسكرياً، بعدما بيّنوه من خيانة بدعم قريش لاستئصال دولة المدينة المنوّرة في غزوة الخندق. وصالح يهود خيبر في حصني الوضيح والسلالم على أن يشتغلوا في أرضهم ويدفعوا نصف الغلال. أمّا نصارى نجران، فقد عاهدهم رسول الله أن يبقوا على دينهم نظير ثمانين ألف درهم جزية. ثمّ أوفد رسول الله بعد الصلح الوفود والسفارات إلى الحكّام يدعوهم للإسلام، كالنجاشي في الحبشة، وقيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس عظيم مصر وغيرهم. وقد أبلغهم بأنّ الإسلام دين رسالة لا يستهدف الاستيلاء على ملكهم، بل هو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وقد ساهمت تلك الاتصالات الديبلوماسية في انتشار الإسلام ودخوله مسرح العلاقات الدولية وتحقيق عالمية الإسلام. 26

سادت في تلك الفترة دولتا الروم(بيزنطة) والفرس، وكانت بينهما حرب طويلة، فقد أوغل الفرس في الشرق الأدنى منذ سنة 610 م، فاستولوا على أنطاكية ودمشق، وحصن طرسوس، وأرمينيا، كما استولوا على القدس ودمّروها بالكامل، ووصل التهديد الفارسي إلى عاصمة بيزنطة القسطنطينية في 612 م، وبعد سقوط الإسكندرية في 619 م سقطت كلّ مصر بأيديهم. وإلى جانب التهديد الشرقي، تعرّضت الدولة البيزنطية إلى زحف الصقالبة (السلاف) من الشمال، الذين استولوا على معظم القارّة الأوروبية.

ولمواجهة الهجمة الفارسية، شرع هرقل ملك الروم في إصلاحات عسكرية شاملة، وقاد بنفسه الحرب بداية من 622 م. وتمكّن في 624 و625 من استرجاع أرمينيا، ومصر في 628 م. ثمّ عقد الصلح مع الفرس، بعد تحرير الأقاليم البيزنطية، ودخل القدس وأعاد صليبها من فارس.27 وفي هذه الحملة، توجّه الروم إلى شمال الجزيرة العربية، فاستعدّ رسول الله بجيش من ثلاثين ألف جندي للقائهم في تبوك، فانسحب جيش هرقل خوفاً من قتال المسلمين نحو الشام، فأخذ الرسول صلّى الله عليه وسلم يتبعهم إلى داخل الشام وأقام عند الحدود معهم، فصالح يوحنا بن رؤية الأمير المسيحي على الجزية، فيما أسلم أمير دومة وأصبح حليفاً للمسلمين، وبذلك تأمّنت الحدود الشمالية للجزيرة العربية.

3- العلاقات الدولية في الخلافة الراشدة (11-41 ه/632-661 م)

خريطة الخلافة الراشدة

استكمل الخلفاء الراشدون المسار الذي اختطّه الرسول صلّى الله عليه وسلّم في نشر الدعوة الإسلامية، بالدعوة والجهاد والعمل الديبلوماسي. فقد كان لسياسة تسامح الخلفاء مع أهل الذمّة في ممارسة شعائرهم الأثر الطيب في نفوسهم، ما حملهم على اعتناق الإسلام. في تلك الفترة كانت فارس مسيطرة على العراق، مقرّ المناذرة اللّخميين الموالين للفرس في الحيرة، بينما حالف الغساسنة في شمال الجزيرة العربية/بلاد الشام البيزنطيين. 28

بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم ارتدّت بعض القبائل العربية عن الإسلام، فواجهها الخليفة أبو بكر الصدّيق 632-634م بحزم مخافة نقض عرى الإسلام. وازداد خطر المرتدّين بتحالفهم مع الفرس في شرق الجزيرة، فقاد خالد بن الوليد جبهة القتال مع الفرس، بينما تمّ تجديد العهد مع نصارى نجران المسالمين. وفي نهاية عهده استكمل السيطرة على الجزيرة العربية، وفتح مناطق جنوب العراق الفارسي، وجنوب سوريا البيزنطية.

استمرّت الفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب 634-646 م، ففتحت الشام والقدس، ومنح السكّان الأمان على أنفسهم لقاء الجزية، كما فتحت الأناضول، ومصر، وأفغانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وجيورجيا. وقد كان الإنجاز الأبرز للخليفة عمر بن الخطاب هو تأسيس الجهاز الإداري للخلافة الإسلامية، لأنّ المؤسّسات البسيطة التي سيّرت مكّة والمدينة والجزيرة العربية لم تكن قادرة على تسيير دولة بحجم الخلافة. وكان الديوان المؤسّسة الإدارية الجديدة بيروقراطية ضمّت الخزينة وأقسام مستقلّة تضمن جمع الضرائب، والحفاظ على الأمن وتحكيم الشريعة. صكّت العملة الإسلامية، وأنشئت مؤسسات لرعاية الفقراء والمحتاجين، وادّخرت الحبوب لتوزيعها على الناس أيام الحاجة. وباشرت الخلافة المشاريع الكبرى، وبنيت المدن، وسبل الري، والطرق والجسور، وأقيمت بيوت الضيافة لإقامة التجار والحجاج.

وفي عهد عثمان بن عفّان نقض الروم وبعض المقاطعات الفارسية العهود، وتمّ تجديدها على نفس شروط السابقة. وفي هاته الفترة بدأ بناء الأسطول البحري الإسلامي للتصدّي لتهديد الروم من جهة البحر، ففتحت جزر كريت، ورودس وقبرص، وهوجمت صقلية. وفي الأربعينيات من القرن السابع، فشل البيزنطيون في استعادة مصر، وفتحت كلّ شمال إفريقيا. 77 بينما شغلت الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب الفتنة عن متابعة الفتوحات الإسلامية.

4- العلاقات الدولية في الدولة الأموية (41- 132 ه 662-750 م)

خريطة الدولة الأموية

كانت فترة الخلافة الأموية مرحلة لتعزيز وتأمين الخلافة وحدودها، ولم تكن فترة توسّع، وقد ساهمت في تعزيز مؤسّسات البيروقراطية. نقل فيها الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على دمشق العاصمة إلى دمشق. وسكت العملة لأول مرة باسم الخلافة الإسلامية بديلاً عن البيزنطية. ونظّم البريد بين أرجائها، وطوّر الأسطول البحري في مصر والشام، لفتح القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين، الذين كانوا يشكّلون الخطر المهدّد للدولة الإسلامية، وتمّ فتح جزر البحر الأبيض الشرقية قبرص ورودس.

وبعد حصار القسطنطينية والانسحاب منها أرسل الروم لطلب الصلح من الأمويين. وقد برزت أشكال عديدة من التواصل بين الأمويين والبيزنطيين غير الحرب، كالمراسلات،

والمناظرات، والمبادلات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء. لكن لم تتطوّر العلاقات بسبب حالة الحرب المستمرّة.

وبدأ توجّه الفتوحات الإسلامية نحو شمال إفريقيا الواقعة تحت نفوذ الروم البيزنطيين، ففتحت طرابلس الغرب وتونس، وأنشِئت القيروان كقاعدة انطلاق لحملات الفتح. وعمل الفاتحون على اكتساب ودّ البربر 35 الذين حرّكهم البيزنطيون ضدّ المدّ الإسلامي، وأقنعوهم بأنّهم ليسوا مستعمرين كغيرهم بل دعاة للإسلام.

حاصر أبو المهاجر دينار العاصمة قرطاجنة، وطلب الروم الصلح. وفي عهد الخلفاء الأمويين عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، استمرّت الحرب مع البيزنطيين الذين انهزموا في معركة أرمينيا، وفتحت البلدان والحصون المهمّة، كحصن عمورية (أنقرة) وهرقلية. كما حاول سليمان بن عبد الملك فتح القسطنطينية لكنّه فشل في ذلك. واستكمل موسى بن نصير فتح شمال إفريقيا وأقبل البربر على اعتناق الإسلام، وفتحت الأندلس على يد طارق بن زياد، كما امتدّت حركة الفتوحات إلى الصين وبلاد التركمان.

5- العلاقات الدولية في الدولة العباسية (132هـ 750-1517 م)

خريطة الدولة العباسية

في 750م وقعت الفتنة الثانية في التاريخ الإسلامي، حين ثار العباسيون على الأمويين وأسّسوا بذلك الحكم العباسي الذي استمرّ إلى غاية 1258. تحوّلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، لتصبح منارة للعلم والثقافة. ومع تطوّر مراكز جهوية في الخلافة، ضعف الحكم المركزي في بغداد وفقد السيطرة على شمال إفريقيا ومصر في القرن الثامن. وفي القرن العاشر، لم تعد تتحكّم سوى في العراق، وحتّى في بغداد خسر الخلفاء سلطتهم لصالح وزرائهم. 81 وتشتّت الخلافة العباسية بين دول مستقلّة أو تابعة صورياً على أطرافها، فنشأت كلّ من الدولتين الطولونية والإخشيدية في مصر والشام، ودولة يعقوب الصفار، والدولة السامانية والدولة البويهية في فارس.

كما استقلّت الدولة العبيدية/الفاطمية في تونس، والجزائر وليبيا بعد هزيمة الأغالبة والرستميين التابعين اسمياً للخلافة. امتدّ سلطان العبيديين الشيعة إلى مصر والشام، وقوي فيها نفوذ المماليك في مصر. كما نشأت في آسيا الصغرى الدولة السلجوقية التركية. ومع تراجع الخلافة العباسية فقدت بغداد بريقها، خاصّة بعد اجتياح التتار بهمجية عير مسبوقة في 1258.

مثّل العهد العباسي العصر الإسلامي الذهبي، وشهد ازدهار العلوم، والتكنولوجيا، والفلسفة والفنون. شكّلت عاصمة الخلافة العباسية بغداد فضاءً امتزجت فيه العلوم الإسلامية والتأثيرات الفارسية والهندية وحتّى الصينية. وبعد الاجتياح التتري، أصبحت القاهرة مركز العالم الإسلامي أين أصبح الخلفاء تحت سيطرة القادة العسكريين من المماليك، إلى غاية تحوّل لواء الخلافة الإسلامية إلى الامبراطورية العثمانية في عاصمتها إسطنبول.

على المستوى الدولي، خضع العالم الإسلامي في الخلافة العبّاسية في معظمه للعبّاسيين، في حين استقلّ الأمويون بالأندلس في عهد عبد الرحمان الداخل. ولأكثر من ثمانية قرون، كان الجانب المسيحي منقسماً بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة)، وبلاد الفرنجة.

وبيزنطة هي امتداد للإمبراطورية الرومانية التي انقسمت إلى قسمين: الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما التي سقطت في 476م باحتلال القبائل الجرمانية التي سيطرت على

أوروبا الغربية حتى إسبانيا وبريطانيا؛ والرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية التي فتحت على يد جيش محمد الفاتح في 1453 م.

وفي 800م سعى شارلمان امبراطور الفرنجة (بلاد الغال/فرنسا) إلى إعادة بعث الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، ونافس بيزنطة في زعامة العالم المسيحي. وقد كانت الدولة العبّاسية في نزاع مستمرّ مع البيزنطيين بسبب سعيها لتأمين الحدود المشتركة معها، أو ما يعرف بمناطق التخوم. استغلّ الامبراطور البيزنطي نقفور الخلاف الداخلي بين الأمين وأخيه المأمون حول الخلافة للتصعيد ضدّ الدولة العباسية، بمساندة حركات التمرّد الداخلية (بابك الخرمي).

وبالتوازي مع حالة النزاع المستمرّ بين الدولتين، تمّ تبادل السفارات، والعلاقات الثقافية والتجارية. ففي عهد كلّ من المهدي والرشيد عرفت الدولة العبّاسية الازدهار الاقتصادي والقوّة العسكرية، وانتعشت معه العلاقات السلمية مع بيزنطة، وسيّرت السفارات لإنهاء الحرب، وعقد الصلح، وتمّ تبادل الأسرى، وأدّت الإمبراطورية البيزنطية الجزية للدولة العباسية كتعبير عن حالة التفوّق العبّاسي.

وفي هذه الفترة استقدم العلماء من بيزنطة إلى بغداد كيوحنا النحوي. كما توسّع الفقه في مسائل العلاقات مع التجّار البيزنطيين ومنحهم الأمان وفرض العشر عليهم بالموازاة مع توسّع حركة السلع بين الدولتين. وقد توسّعت العلاقات الديبلوماسية العبّاسية مع كلّ من

القسطنطينية، وروما، ومملكة البلغار، والفرنجة، والهند والصين. وفي أواخر الدولة العباسية اجتاحتها الحركات الانفصالية لذلك سعت إلى تأمين الداخل بدل الاستمرار في الفتوحات.

وقد ساد التقارب بين الفرنجة والعبّاسيين باعتبار بيزنطة العدوّ المشترك لهما. كما أنّهما سعيا للسيطرة على الأندلس تحت السلطة الأموية، وجرت مشاورات في 797م بين هارون الرشيد والامبراطور الإفرنجي شارلمان حول سبل تسهيل حجّ الإفرنج إلى بيت المقدس، ومقاومة البيزنطيين وتقاسم الأندلس الأموية.

وبالإضافة إلى الأمويين في الأندلس، ظهرت حركات احتجاجية تمرّدت على حكم العبّاسيين في المغرب، وشكّلت دولاً مستقلّة كالأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة في شرق المغرب (تونس) الموالون للعبّاسيين في تونس، والفاطميين في المغرب الأوسط (الجزائر)، ممّا عزّز التوجّهات الاستقلالية للولايات وأضعف السلطة المركزية للخليفة.

وفي 1258م اجتاح التتار بقيادة هولاكو العاصمة بغداد وقتل الخليفة وأبناءه، وانتقلت العاصمة إلى سامراء، ثمّ إلى القاهرة. وفي 1261م أعاد الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العبّاسية لتأمين الشرعية لحكم المماليك كحكّام فعليين إلى غاية دخول القوّة الإسلامية الصاعدة المتمثّلة في الدولة العثمانية التي دخل جيشها الشام ومصر في 1519م، وانتقلت عاصمة الخلافة بعدها من القاهرة إلى القسطنطينية.

أقام الشيعة المسلمون خلافتهم الدولة العبيدية، ونقلوا في 969 العاصمة إلى القاهرة ليحكموا غرب سوريا بما فيها غرب الجزيرة العربية، وصقلية، وكل شمال إفريقيا. وقد أصبح الخلفاء العبيديون رهينة للقادة العسكريين من المماليك، وهم أطفال من العبيد استقدموا عادة من القوقاز أو المناطق التركية في آسيا الوسطى، وتلقوا التربية الإسلامية والتدريب العسكري، سيكون له نسخة عثمانية هي الجيش الانكشاري في الخلافة العثمانية. وشغل المماليك مختلف الوظائف سواء ككتّاب أو مستشارين أو إداريين أو عسكريين.

تولى العبيديون الحكم في مصر في 1250، واستمرّ حكمهم كسلطنة مملوكية إلى غاية 1517 حين تعرّضوا لهجوم عثماني. وفي العهد المملوكي تعرّض العالم الإسلامي لحملات صليبية متوالية في سعيها لاحتلال القدس. وقد تمكّن الصليبيون من ذلك لفترة تسعين سنة، إلى غاية تحريرها في 1187 م على يد صلاح الدين الأيوبي عقب معركة حطّين بعد القضاء على الدولة العبيدية في مصر. وهي الفترة التي بدأ فيها تراجع القوّة الإسلامية في مقابل تصاعد القوّة الغربية.

شكّلت الحروب الصليبية لقاءً تاريخياً عنيفاً بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ففي 1099 في الحملة الصليبية الأولى، احتلّ الأوروبيون بيت المقدس وأسّسوا مملكة مسيحية فيها. وفي 1187 انهزموا في معركة حطّين واستعاد المسلمون القدس. وتوالت الحملات الصلبية لتصل إلى عدد .... حملة، الحملة الأولى 1095-1099، ثمّ 1145، و1189، و1202،

و1213، و1248 و1270. أقام الفرنج الفرنسيون ممالك صليبية صغيرة في الأراضي العبيدية، وكانت حربهم ضدّ المسلمين حرباً همجية، كما حدث عند احتلال القدس في 1099، والمجازر ضدّ المدنيين فيها.

وفي 1291، سقطت آخر مملكة صليبية. بالموازاة مع الخطر الصليبي من الغرب، واجه المماليك خطر التتار المغول، الذي احتلّوا بغداد سنة 1258، وبعد سنة انهزموا في واقعة عين جالوت واضعة الحدّ لتقدّمهم، وقد كانت السبب في بداية انهيار الامبراطورية المغولية.

6- العلاقات الدولية في الأندلس 711 هـ/ 1492 م

خريطة الأندلس

في 756 أقام الأمويون خلافة لهم في قرطبة فرارا من الاضطهاد العبّاسي، بترحيب من اليهود والمسيحيين الإسبان الذين عاشوا أوضاعاً سيئة بسبب الضرائب المرتفعة التي فرضها الحكام القوط. خلافة قرطبة في 929-1031.

تعتبر الفترة الأندلسية من التاريخ الإسلامي مثالاً تاريخياً على التعايش بين الأديان، فقد أعطى المسلمون بداية من الفتح ضمانات لاحترام دين الإسبان الأصليين من المسيحيين واليهود بشرط أداء الجزية، فكان لهم الدور البارز في تطوير الحياة الاقتصادية والعلمية. فقد أدخلوا زراعات جديدة كالأرز، والموز والقمح، ونظماً جديدة للري. كما أثروا الإنتاج العلمي عبر حركة الترجمة في طليطلة في القرنين الحادي عشر والثالث عشر بالموازاة مع جهود بغداد

في الترجمة في القرنين التاسع والعاشر، ففي البداية ترجم العرب كلاسيكيات اليونان إلى العربية من اللاتينية، ثم ترجمت نفس الأعمال من العربية إلى اللاتينية.

كانت طليطلة الجسر الذي انتقلت منه النصوص اليونانية إلى كلّ أوروبا في مؤسّسات علمية جديدة هي الجامعات. وعند سقوط طليطلة في 1085، أصبحت أهمّ مدينة إسبانية مسيحية ومركزها الثقافي والعلمي. بهذه الطريقة، تمكّن ألبرت ماغنوس وتوماس الإكويني في السوربون من قراءة ابن رشد وابن سينا، وتأثّر روجي بيكون في أوكسفورد بالمنهج العلمي لابن الهيثم، وقرأ نيكولوس كوبرنيكوس في بولونيا أعمال الفلكيين اليونانيين والعرب. كانت النهضة الأوروبية مزيجاً من الإرث اليوناني الذي حفظ وترجم وطوّر بجهود علماء بغداد وطليطلة.

تشكّل المشهد الدولي في هاته الفترة من الخلافة العبّاسية في المشرق، والامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) في القسطنطينية، والدولة الأموية (قرطبة) في الأندلس، ودولة الفرنجة في بلاد الغال (فرنسا). فتحت الأندلس زمن الدولة الأموية، وانتقل الصراع بين الأمويين والعبّاسيين إليها، حيث قدم إليها صقر قريش عبد الرحمن الداخل الفارّ من العبّاسيين بعد استيلائهم على الخلافة في المشرق(138 ه 756 م). وقد أصبحت قرطبة حينذاك مركزاً حضارياً في البحر المتوسّط والعالم الإسلامي، في مستوى بغداد العبّاسية والقسطنطينية البيزنطية.

لقد فضّل عبد الرحمان الداخل عدم التوسّع لتوطيد دولته الفتية، فيما استردّ الفرنج بعض الأراضي، وقد كان في حرب مستمرّة معهم. وقد حصل اتّفاق بين والي إفريقيا ووالي سرغوسة مع شارلمان لاحتلال الأندلس الأموية، لكنّه فشل في ذلك. كان عبد الرحمن الناصر أوّل من تلقّب باسم الخليفة معلناً قيام الخلافة الأموية في الأندلس، وقد توسّعت حدود الدولة في عهده في اتّجاه عمق القارّة الأوربية في فرنسا وسويسرا وإيطاليا.

وبداية من 930 م استرجع الأمراء الأوروبيون بقيادة هيو ملك إيطاليا ورومانوس الأوّل الامبراطور البيزنطي السيطرة، لكنّ الامبراطور اضطرّ إلى عقد الصلح مع الأمويين لمواجهة الاضطرابات الداخلية في بيزنطة.

وبعد فترة القوّة، تفكّكت الخلافة الأموية وتشكّلت على أنقاضها دوليات صغيرة تدعى ملوك الطوائف، وتشجّعت الدول المسيحية على غزوها بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة. استدعى هذا الأمر طلب أهل الأندلس من المسلمين نصرة دولة المرابطين في المغرب الأقصى، وراسلوا الأمير يوسف بن تاشفين الذي عبر إلى الأندلس وتمكن من هزيمة المسيحيين في معركة الزلاقة في 1086م. وبعد تدخّل ثانٍ للمرابطين في 1088م لإنقاذ الأندلس الإسلامية من الخطر المسيحي الأوروبي، قضى المرابطون نهائياً على ملوك الطوائف وضمّوا الأندلس إلى دولتهم، وأصبحت بذلك ولاية من ولايات دولة المرابطين.

ثم أصبحت الأندلس ولاية موحدية في 1121م بعد سقوط دولة المرابطين على يد دولة الموحّدين، وتوالى سقوط أجزائها في يد الملوك المسيحيين، فقد سقطت طليطلة في 1085 م على يد ألفونسو السادس، ثم قرطبة في 1236م، ثمّ آخرها غرناطة في 1492 م. ونزح المسلمون واليهود إلى المغرب ومصر والشام والآستانة هروباً بدينهم من الاضطهاد المسيحي، حيث أجبر مرسوم الحمراء الصادر بعد ثلاثة أشهر من سقوط غرناطة غير المسيحيين على التنصّر أو المغادرة، لذلك غادر حوالي مائتي ألف مسلم إلى شمال إفريقيا، بينما فضّل عدد مماثل من اليهود الانتقال إلى الإمبراطورية العثمانية.

على خلاف ما وقع في إسبانيا في حرب الاسترداد Reconquista، لم يحاول النورمان تدمير صقلية العربية، بل عزّزوا مكانة العلماء المسلمين، واستخدموا الموظّفين المسلمين في الإدارة، لدرجة أنّ كبير الطبّاخين في المطعم الملكي كان مسلماً. وقد كان محمّد الإدريسي أحد العلماء المسلمين المستخدمين في قصر الملك النورماندي روجر الثاني. وبعد خمسة عشر سنة من البحث، كتب الإدريسي في 1154 "كتاب روجر" الذي يتضمّن وصفاً وخريطة للعالم. لكن في 1240 تزايد تأثير البيزنطيين، وقضي على الاستثناء الصقلي في التسامح مع المسلمين.

عاصر المؤرّخ عبد الرحمان بن خلدون 1332-1406م تشتّت الخلافة المركزية وصراع الملك، لذلك عمل على تفسير صعود الدول وانهيارها بناء على استقراء تاريخي بمنهجية علمية،

فدرس دور العصبية أو التجانس الاجتماعي أو التضامن الجماعي. والبربر مثال جيّد على ذلك، فقد عاشوا وتغلّبوا على قساوة الصحراء بفضل وحدتهم ومدّ يد المساعدة لبعضهم. وقد أعطتهم روح التضامن السلطة أو الملك وجعل منهم غزاة ناجحين. وبما أنّ النجاح لن يدوم أبد الدهر، تبدأ العصبية في الاضمحلال عندما يصبح الحكّام الجدد أغنياء يركنون إلى الاستمتاع بالملذّات. وعوض الاعتماد على التضامن الجمعي، يعتمد الحكّام على المرتزقة لخوض حروبهم، وعلى بيروقراطيين لتسيير شؤونهم. في خمس أجيال، فسّر ابن خلدون انهيار الملك وقيام جماعة أخرى لانتزاع الملك. وطبقا لما شرحه ابن خلدون، وبالموازاة مع انهيار العباسيين، صعد نجم الأتراك عبر الخلافة العثمانية.

العلاقات الدولية في الخلافة العثمانية 1299-1923م

الدولة العثمانية أو الخلافة العثمانية والتي كانت تعرف بالدولة العلّية العثمانية، هي إمبراطورية إسلامية أسّسها عثمان الأول بن أرطغرل(1258-1326) في أواخر القرن الثالث عشر واستمرت قرابة ستة قرون. وقد عرفت الدولة العثمانية مراحل عدة في تاريخها بداية من التأسيس إلى الانهيار، وهي إجمالاً:

- **مرحلة التأسيس والتوسّع** (1299-1453): بدأت الإمبراطورية كإمارة صغيرة في الأناضول، ثم توسعت تدريجيًا حتى سيطرت على القسطنطينية (اسطنبول حاليًا) عام 1453، مما جعلها قوة عظمى في المنطقة.

- **مرحلة القوة والازدهار** (1453-1566): شهدت هذه الفترة أوج قوة الإمبراطورية، حيث امتدت حدودها إلى أقصى الجنوب في مصر وأقصى الغرب في أوروبا الوسطى. تميزت هذه الفترة بالاستقرار السياسي والاقتصادي والثقافي.

- **مرحلة الركود والانتعاشات**(1566-1683): بدأت تظهر علامات الضعف في الإمبراطورية، ولكنها شهدت أيضًا انتعاشات مؤقتة.

- **مرحلة الضعف والانحلال** (1683-1918): تعرضت الإمبراطورية لضغوط متزايدة من القوى الأوروبية، وخسرت أجزاء كبيرة من أراضيها.

- **السقوط والانهيار (1918-1923)**: انهارت الإمبراطورية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وتأسست جمهورية تركيا الحديثة على أنقاضها.

وكان لقوة الدولة العثمانية عدة عوامل منها:

- **التنظيم الإداري والعسكري الفعال**: اعتمد العثمانيون نظامًا إداريًا وعسكريًا متطورًا، مما ساهم في تحقيق الانتصارات العسكرية والحفاظ على الإمبراطورية.

- **التسامح الديني**: اتبع العثمانيون سياسة التسامح الديني، مما جذب العديد من الشعوب إلى دولتهم، وشجع على الازدهار الثقافي.

- **التجارة والاقتصاد القوي**: كانت الإمبراطورية العثمانية مركزًا تجاريًا مهمًا، مما ساهم في ازدهار اقتصادها.

وفي المقابل، ساهمت عوامل متعددة في سقوط الدولة العثمانية، ومنها:

- **الفساد والمحسوبية**: انتشر الفساد والمحسوبية في أجهزة الدولة، مما أضعفها من الداخل.

- **التخلف التكنولوجي**: لم تتمكن الإمبراطورية من مواكبة التطورات التكنولوجية في أوروبا.

- **الضغوط الخارجية**: تعرضت الإمبراطورية لضغوط متزايدة من القوى الاستعمارية الأوروبية.

- **الحروب المستمرة**: أدت الحروب المستمرة إلى استنزاف موارد الإمبراطورية.

العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية: تاريخ من التنافس والتحالف

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية متشابكة ومعقدة على مر القرون، وتخللتها فترات من التنافس الشديد والحروب الطاحنة، وفترات أخرى من التحالفات الاستراتيجية.

كان من أسباب التوتر والصراع في العلاقات العثمانية الأوروبية التوسع العثماني الذي اعتبرته أوروبا تهديدًا مباشرًا لمصالحها، خاصة النمسا وروسيا. فيما كان الدين عاملًا مهمًا في تشكيل العلاقات بين الطرفين، حيث كانت الصراعات الدينية بين المسيحية والإسلام تلعب دورًا كبيرًا في تحريك الحروب بينهما. وقد تنافست الدول الأوروبية مع العثمانيين على السيطرة على طرق التجارة البحرية والبرية، وعلى النفوذ في مناطق مختلفة من العالم.

وقد مرت العلاقات بين العثمانيين والأوروبيين عبر عدة مراحل، بداية من مرحلة التوسع العثماني التي شهدت سلسلة من الحروب، مثل حصار فيينا عام 1683، وبعدها مرحلة التوازن، فبعد أن وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى أوج قوتها، دخلت في مرحلة من التوازن مع الدول الأوروبية، حيث كانت تحالفات الدول الأوروبية متغيرة باستمرار، وتلتها مرحلة الضعف والانهيار، حيث تراجعت قوة الإمبراطورية العثمانية، مما زاد في حدة

التنافس بين الدول الأوروبية على تقسيم أراضيها، وأدى إلى الحروب البلقانية والحرب العالمية الأولى.

ومن أهم ما يميز العلاقات العثمانية الأوروبية الحروب الطويلة مثل الحروب العثمانية الروسية والحروب العثمانية النمساوية، والتحالفات المتغيرة، إذ كانت الدول الأوروبية تغير تحالفاتها باستمرار، حيث كانت تتحالف أحيانًا مع العثمانيين ضد خصوم مشتركة، وأحيانًا أخرى تحاربهم. فيما كانت التجارة تلعب دورًا مهمًا في العلاقات بين الطرفين، حيث كانت الدول الأوروبية تسعى للحصول على التوابل والسلع الأخرى من الشرق. كما لعبت الدبلوماسية دورًا حاسمًا في العلاقات بين العثمانيين والدول الأوروبية، حيث كانت السفارات تتبادل الزيارات والمفاوضات.

الخلافة العثمانية وريثة الخلافة الإسلامية

بعد القضاء على الدولة البويهية بناءً على استنجاد الخليفة العبّاسي القائم بأمر الله، برز نجم الأمير الغازي أرطغرل بن سليمان شاه (1191-1281م) في نشاطه العسكري تحت سلطة الدولة السلجوقية التركية 1037-1194م، التي شملت في أقصى اتساعها إيران وأفغانستان ووسط آسيا شرقاً، والعراق والشام والأناضول غرباً التابعة للخلافة العباسية. وتولّى زعامة الإمارة بعده ابنه عثمان في 1281م فأخلص الولاء للدولة السلجوقية على الرغم ممّا كانت تتخبّط فيه من اضطراب، وما كان يتهدّدها من أخطار.

عقد عثمان بن أرطغرل (1258-1326) تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجّه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية خاصّة في حالة الضعف وانشغالها بالحروب في أوروبا. وحين تغلّب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة، ولقّب نفسه عاهل آل عثمان، فكان بذلك مؤسّس الدولة العثمانية الكبرى التي نُسبت إليه لاحقًا. واتخذ عثمان مدينة بورصة عاصمة لحكمه بعد مدينة سكود. وقد امتدّت الدولة العثمانية من البلقان إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وحكمت شعوبًا متنوعة من المسلمين والمسيحيين واليهود.

خلف عثمان المؤسس ابنه أورخان الغازي بن عثمان 1281-1360، الذي أنهى نفوذ البيزنطيين في بلاد آسيا الصغرى، وفي عهده بدأت الفتوحات الإسلامية في الشرق الأوروبي. وقد ضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بالجيش الإنكشاري، سيكون له دور أساسي في تاريخ الدولة العثمانية داخلياً وفي علاقاتها الخارجية. ونثل عاصمته إلى بورصة نظرا لموقعها الاستراتيجي.

توسّع مراد الأوّل 1326-1389، ففتح مدينة أدرنة سنة 1362م، ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرّك والجهاد في أوروبا. وقد ظلّت عاصمة للعثمانيين حتّى فتحوا

القسطنطينية العاصمة البيزنطية في وقت لاحق، كما فُتحت عدّة مدن أخرى، مثل: صوفيا وسالونيك، وبذلك صارت القسطنطينية، اسطنبول الحالية، محاطة بالعثمانيين من كلّ جهة.

وفي 1385م التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية -بمساندة من المجر والبلغار والألبانيين في إقليم قوصوة/كوسوفو، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلّا أنّ السلطان قتل في نهايتها على يد جندي تظاهر بالموت، ولقب بالسلطان الشهيد.

خلف مراد الأول ابنه بايزيد (1361-1403) الذي استكمل مسار الجهاد، وأخضع البلغار عام1393م إخضاعًا تامًا، فجزع سيغسموند ملك المجر من هذا التوسّع العثماني، خصوصًا بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية؛ فدعا البابا بونيفاس التاسع إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغّل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة ملك المجر، وعدد من أمراء فرنسا وبافاريا والنمسا، وفرسان القديس يوحنا في رودس، وجمهورية البندقية، وقدمت إنجلترا مساعدات عسكرية. تقابل الجيشان العثماني والأوروبي في 25 سبتمبر سنة 1396م، ودارت بينهما رحى معركة ضارية هُزم فيها الأوروبيون.

عمل السلطان بايزيد على تعزيز مركزه في آسيا الصغرى استعدادًا للموقعة الفاصلة بينه وبين تيمورلنك ملك المغول، وهكذا خفّ الضغط العثماني على البيزنطيين، وتأخّر سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين أكثر من خمسين سنة. هزم بايزيد على يد تيمور لنك في

1402م، وتوفّي في الأسر سنة بعد ذلك ممّا تسبّب في تراجع القوّة العثمانية، واستقلال البلغار والصرب والفلاخ (رومانيا).

ومع تولّي مراد الثاني 1403-1451 عاد العثمانيون للتوسّع، فهزم القوّات المجرية، وحاصر القسطنطينية التي فتحها السلطان محمّد بن مراد الثاني الذي لقّب بمحمّد الفاتح 1429-1481 في 1453 وغيّر اسمها إلى إسلامبول (اسطمبول)، وحوّل كاتدرائية أيا صوفيا إلى مسجد. كما أخضع بلاد الصرب وأقاليم في اليونان والأفلاق والبشناق وألبانيا.

شهد بايزيد بن الفاتح، بايزيد الثاني (1481-1512)، سقوط الأندلس وطرد من فيها من المسلمين واليهود على يد الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلّا ومدينة غرناطة. وقد استنجد المسلمون الأندلسيون بالسلطان العثماني ونظيره المملوكي لتخليصهم مما هم فيه، فأرسل بايزيد أساطيله لحمل لنجدتهم. كما قصف العثمانيون بضعة مدن مملكة قشتالة انتقامًا وإلهاء النصارى. وشكلت هذه العمليات العسكريّة بدايات ما عُرف بالجهاد البحري، حين بدأ البحارة المسلمين يغيرون على السفن القشتالية، والبرتغالية والإيطالية انتقامًا للأندلسيين، ثمّ تلقّوا الدعم والسند من العثمانيين.

وفي عهده أيضًا ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس، هي السلالة الصفوية، التي استطاعت بزعامة الشاه إسماعيل بن حيدر (1487-1524)، أن تهدّد العثمانيين من الشرق. ذلك أنّ الصفويين كانوا يعملون على نشر المذهب الشيعي في الأناضول على حساب المذهب

السنّي، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الوسطى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية.

طوّر سليم بن بايزيد أو سليم الأوّل(1470-1520) فيما بين 1512-1520 أسطولاً بإمكانه الإبحار بعيداً في كالبحر الأحمر والخليج العربي. وقد اضطرّ إلى مواجهة الصفويين بقيادة الشاه إسماعيل والمدّ الشيعي المتحالف مع البرتغال والمماليك في مصر والشام، وتمكّن من هزيمة الصفويين والتوجّه للمماليك الذين هزمهم في مرج دابق. ثمّ تحوّل إلى مصر، وبعد انتصاره في معركة الريدانية سنة 1517م فتح القاهرة. بعد ذلك اعترف شريف مكّة بسلطة العثمانيين، وتنازل آخر الخلفاء العبّاسيين محمّد الثالث المتوكّل على الله عن الخلافة لآل عثمان في 1517، ثم توفي في 1543.

حدث آخر ميّز عهد سليم الأوّل هو انضمام الجزائر إلى الخلافة العثمانية، بناء على كتاب إلى السُلطان سليم محرّر باسم أهل الجزائر يطلبون فيه الانضواء تحت حماية الدولة العثمانية بعد أن تكاثر عليهم الأعداء، كما ثارت قبيلة زواوة بقيادة أحمد بن القاضي، واستعان السلطان أبو حمو موسى بن عبد الله الزياني بالإسبان ضد خير الدين، واستغلّ السلطان الحفصي هذه الاضطرابات فأرسل إلى خير الدين يطلب منه الدخول في طاعته، في وقت كان الإسبان يستعدون للزحف نحو الجزائر للقضاء على القائد العُثماني والحامية المرابطة معه.

لذلك بايع خير الدين والجزائريون السلطان سليم على السمع والطاعة، فسارع السلطان بتولية خير الدين على الجزائر (المغرب الأوسط) التي أعلنها إيالة عثمانية مركزها الجزائر، وأرسل حوالي ستة آلاف جُندي، منهم ألفي إنكشاريّ مجهزين بالبنادق وعدد من المدافع، وعدد آخر من المُتطوعين، وأعلن السلطان تأمينه نفقات السفر للمتطوعين الراغبين بالذهاب إلى الجزائر للجهاد، ووعدهم بِالامتيازات التي يحصل عليها الإنكشارية. وبذلك صار المغرب الأوسط جزءًا من الخلافة العثمانية يُدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السُلطان سليم وتضرب السكة باسمه.

توجّه سليمان القانوني غرباً ففتح بلغراد في 1521م، ورودس، وبعض الأراضي المجرية، وحاصر فيينا لمرّتين الأولى في 1529 و1532. وحصار فيينا حدث بالغ الأهمية في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، ويمثل نقطة تحول في مسار التوسع العثماني في أوروبا، فقد مثّل أعظم دليل على قوة الدولة العثمانية وأقصى توسع لها في وسط أوروبا، وقد كان أيضا بداية لمرحلة استمرت مائة وخمسين عاما من الصراع بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، تخللتها العديد من الهجمات والمعارك والتي بلغت ذروتها في معركة فيينا سنة 1683 والتي بدأت الحرب التركية العظمى التي استمرت لخمسة عشر عاما.

وفي 1532 عقد الصلح مع المجر مع الاحتفاظ بالأراضي المجرية. ثمّ توجّه شرقاً، واحتلّ تبريز عاصمة الفرس، ودخل بغداد التي كانت تحت حكم الصفويين. كانت جزيرة رودس حصناً لفرسان القدّيس يوحنّا الذين كانوا يقطعون طريق الحجّاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، فضلاً عن أعمالهم العدوانية الموجّهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية. فعزم السلطان سليمان على فتح رودس، وأعدّ حملة كبيرة ابتداءً من منتصف عام 1522م، وفتحها، وأعطى الفرسان حقّ الانتقال منها، فذهبوا إلى مالطة، وهناك أعطاهم شارلكان حقّ حكم هذه الجزيرة.[7]

ويعود السبب في قتال المجر وحصار فيينا إلى عزم ملك المجر فيلاديسلاف الثاني جاجليو على فكّ أي تعهّدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب إلى حدّ قتل مبعوث السلطان سليمان إليه، وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر، ولهذا ردّ سليمان في عام 1521م بغزوة كبيرة ضدّ المجر.

انتصر العثمانيون في موقعة موهاكس عام 1526م، وتابع السلطان ضغطه حتّى بلغت جيوشه أسوار فيينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدّسة عام 1529م، إلّا أنّ طول خطوط المواصلات، وتحوّل شارلكان من قتال فرانسوا إلى التصالح معه للتفرّغ لحرب العثمانيين وإنقاذ عاصمة الهابسبورغ، جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح فيينا، فتراجع عنها،

7 علي الصلابي، دولة السلطان سليمان القانوني.. عهد القوة والحكمة والقانون،

بينما استمرّ الصراع بين سليمان والقوى الأوربية المؤيّدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتّى وفاة سليمان.[8]

في عهد سليمان القانوني تحوّلت الخلافة العثمانية إلى قوّة أوروبية وشريكاً حتمياً سواءً في الحرب أو في السلم، رغم المخاوف المسيحية منها، في الوقت الذي كانت تعيش فيه دول أوربا انقسامات سياسية ودينية خطيرة، وهو ما كان سببا في تنوّع مواقف الدول الأوربية من الدولة العثمانية حسب ظروف كلّ دولة.

لقد أدركت فرنسا أنّ العثمانيين يشكّلون قوّة يمكن إقناعها بمهاجمة الهابسبورغ من الجنوب، وخلال حرب الثلاثين سنة في القرن السابع عشر، توصّل ملك السويد إلى نفس النتيجة. وكان شارلكان ملك الإمبراطورية الرومانية المقدّسة[9] ينافس فرانسوا الأوّل ملك فرنسا على عرش الامبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية. وفي نهاية النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، شاركت الدولة العثمانية كلّا من بريطانيا وفرنسا الحرب ضدّ روسيا في القرم. وفي مؤتمر باريس سنة 1856 المنعقد لتسوية حرب القرم، اعتبرت الامبراطورية العثمانية بصفة رسمية عضواً في نظام الدول الأوروبية.

---

8 نفس المرجع،

9 استمرّت الامبراطورية الرومانية المقدّسة منذ تتويج أوتو الأوّل في روما في 962م إلى غاية تنازل فرانسيس الثاني عن اللقب الامبراطوري سنة 1806م.

على أن أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التي تحولت إلى محالفة.[10] فقد أراد فرانسوا الأوّل (1515-1547) أن يستغلّ مكانة وقوّة الدولة العثمانية، ويكسبها صديقاً له، معتقداً بأنّ الدولة العثمانية هي التي ستحدّ من طموحات شارلكان، وتوقفه عند حدّه، وبدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة بافيا، عقد في نهايتها تحالف في شكل معاهدة، سمّيت فيما بعد بـمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، سيكون لها تأثير خطير على مصير الدولة العثمانية، نصّت على:[11]

- حرية التنقّل والملاحة في سفن مسلّحة وغير مسلّحة بحرية تامّة؛
- وحقّ التجارة في كلّ أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا؛
- الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرَّعايا الأتراك؛
- حق التمثيل القنصلي والحصانة القنصلية للقنصل وأقاربه والعاملين معه؛

10 علي الصلابي،

11 علي الصلابي،

- من حقّ القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية، والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم في هذه القضايا، وللقنصل الحقّ في الاستعانة بالسلطات المحلّية لتنفيذ أحكامه؛
- في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني، لا يستدعي، ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي، ولا يحاكم إلّا بحضور مترجم القنصلية الفرنسية؛
- حرية العبادة محفوظة لرعايا الملك؛ منع استعباد رعية الملك، فقد امتدّت الرعاية الفرنسية للمسيحيين في الشرق إلى الموارنة والدروز في لبنان.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني، وشنّ الأسطول العثماني لهجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لشارلكان. وفي عام 1543م، تجمعت وحدات الأسطولين العثماني والفرنسي، وهاجمت نسير التابعة لدوق سافوي حليف شارل الخامس.[12]

استفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً، واقتصادياً وسياسياً، واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها

12 علي الصلابي،

على الحقّ الكامل في حماية رعايا الدول الغربية الأخرى، ممّا جعل لها مكانة مرموقة بين دول غرب أوربا.[13] وقد أثرت العلاقة مع الأوروبيين في أواخر أيام الدولة العثمانية مع تدخّل دول أوربا النصرانية في شؤونها تحت حماية الامتيازات، وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدّون رعايا للدولة الأجنبية، وخاصةً في بلاد الشَّام.[14]

ومع تزايد الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية، بدأت فيها الثورات في وقت زاد فيه نفوذ الجيش الإنكشاري الذي انحرف عن مهمّته العسكرية إلى غاية حلّه من طرف السلطان محمّد الثاني في 1826م، وتوالت الهزائم مع البنادقة. لكن تولّي الصدر الأعظم محمد كوبرلي(1656-1661) في عهد السلطان محمد الرابع، أوقف التراجع بفضل إصلاحات داخلية، وتقوية الأسطول البحري لمواجهة البندقية في مضيق الدردنيل، وتمكّن كوبرلي من الانتصار عليها وتحرير جزيرتي ليمنوس وتينيدوس.

كانت العلاقات الخارجية للدولة العثمانية تتّسم بطابع الحروب من أجل كبح جماحها وتقليص نفوذها في المناطق الأوروبية، خاصّة روسيا والنمسا اللّتين أبدتا اهتماماً بالمناطق الأوروبية الخاضعة للدولة العثمانية، باعتبار روسيا وريثة الامبراطورية البيزنطية فقد كانت تريد ضمّ المناطق الأرثوذكسية في اتّحاد تحت حكمها. أمّا النمسا فكانت تريد استرجاع

---

13 علي الصلابي،

14 علي الصلابي، دولة السلطان سليمان القانوني.. عهد القوة والحكمة والقانون، على الرابط: https://bit.ly/3x5hhx7.

الأراضي الشرقية المجاورة لها والخاضعة للدولة العثمانية لتأمين حدودها، خاصّة أنّها خضعت للتهديد عبر حصار العاصمة فيينا لمرّتين في 1525 و1683.[15]

حصار فيينا

كان الهدف من حصار فيينا الثاني في 1683 هو استعادة العثمانيين لهيبتهم وتوسيع نفوذهم، بعد فترة من الضعف النسبي، غير أن قوات التحالف الأوروبي، بقيادة الملك البولندي يوحنا الثالث سوبيسكي، نجحت هذه المرة في كسر الحصار وإنقاذ المدينة. وكانت هذه الهزيمة بمثابة بداية النهاية للتوسع العثماني في أوروبا. ومثّل فشل هذا الحصار نقطة تحول حاسمة، حيث بدأ تراجع نفوذ الإمبراطورية العثمانية في أوروبا، ومهد الطريق لسلسلة من الحروب التي أدت إلى فقدان العثمانيين لأجزاء كبيرة من أراضيهم في أوروبا.

لقد كانت لفيينا رمزية خاصة، فهي تمثل بوابة أوروبا الوسطى، والسيطرة عليها كانت ستفتح الباب أمام العثمانيين للتوسع أكثر في أوروبا. فيما أدى الحصار إلى توحيد القوى الأوروبية المسيحية ضد الخطر العثماني، وشكل تحالفًا قويًا استمر لعدة قرون، وترك آثارًا عميقة في الذاكرة الأوروبية، حيث أصبح رمزًا للصراع بين الحضارات والمسيحية والإسلام، كما شكل حدود القارة الأوروبية لعدة قرون.

15 العلاقات الخارجية للدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث وأثرها على الأوضاع الداخلية، ص 3.

في 1684م أعلنت روسيا والنمسا بمشاركة بولونيا عن الحلف المقدّس، ومن ثمّة تنظيم الحملة الصليبية الرابعة عشر ضدّ الخلافة العثمانية التي وقّعت مع الثلاثي صلح كارلوفيتس في 1699، حصلت النمسا من خلاله على بلاد المجر وإقليم ترانسيلفانيا، وحصلت روسيا على مدينة آزاق. وعقدت النمسا هدنة مع الخلافة مدّتها خمسة وعشرين سنة دون جزية. وأصبحت النمسا منافسة الدولة العثمانية، وتمكّنت من استعادة الأراضي المنخفضة وميلانو ونابولي.

بعد فشل الحصار العثماني الثاني لفيينا عام 1683، شهدت العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية تحولات جوهرية، وشهدت الإمبراطورية العثمانية نفسها مرحلة من الانحدار. وأهم التطورات التي حدثت بعد هذه الحادثة الفارقة:

- تراجع النفوذ العثماني في أوروبا، حيث بدأت الإمبراطورية العثمانية تفقد سيطرتها على أجزاء واسعة من أوروبا، وشن عليها الحلفاء المسيحيون هجمات مضادة؛

- شهدت العقود التالية سلسلة من الحروب التي أدت إلى خسارة العثمانيين لأراضيهم في المجر والبلقان؛

- توقيع معاهدة كارلوفيتس عام 1699، إذ أجبرت المعاهدة العثمانيين على التنازل عن أراضٍ واسعة في أوروبا، مما شكل ضربة قاصمة لطموحاتهم التوسعية.

نتائج حصار فيينا على أوروبا

شكل الحصار دفعاً لصعود القوى الأوروبية، وتعزيز التحالفات بينها، فقد نجح الحلفاء المسيحيون في صد الهجوم العثماني عزز من التحالفات بين الدول الأوروبية، وخاصة النمسا وبولندا. كما استغلت الدول الأوروبية ضعف العثمانيين لتوسيع نفوذها الاستعماري في العالم الجديد وفي آسيا، وأسست إلى تغيير التوازن القوى في أوروبا، حيث صعدت دول جديدة مثل روسيا وبروسيا.

ساهم حصار فيينا في تشكيل الهوية الأوروبية والوحدة ضد العدو المشترك، حيث تمكنت من التغلب على خلافاتها الداخلية وتوحيد صفوفها لمواجهة الخطر العثماني، وتم تقديم الحصار على أنه صراع بين الحضارة المسيحية والإسلام، مما أدى إلى تعزيز القيم المسيحية في أوروبا. وأصبح موضوعًا شائعًا في الفن والأدب الأوروبي، حيث تم تصويره في اللوحات والنحت والشعر، مما ساهم في ترسيخه في الذاكرة الجماعية. وفي مجال العمران والعمارة بعد الحصار، تم إيلاء اهتمام كبير لتقوية التحصينات في المدن الأوروبية، خوفًا من تكرار الهجمات العثمانية، وتطورت العمارة العسكرية في أوروبا تأثرًا بتجارب الحصار، حيث تم بناء تحصينات أكثر قوة وفاعلية.

كما ساهم الحصار في تأكيد القيم الغربية، مثل الحرية والديمقراطية، والتي تم اعتبارها على أنها ضد الاستبداد العثماني.، وربط مفاهيم الحضارة والتمدن بالقيم المسيحية والحضارة

الغربية، وأثر الحصار في تحفيز البحث العلمي ودفع الحصار العلماء الأوروبيين إلى البحث عن وسائل جديدة للدفاع عن قراهم، مما أدى إلى تطورات في مجال العلوم والتكنولوجيا، وتطوير الأسلحة في مجال الأسلحة والمدفعية، وذلك نتيجة للتنافس بين الدول الأوروبية والعثمانيين.

نتائج حصار فيينا على الدولة العثمانية

وعلى المستوى الداخلي، خلّف انهزام العثمانيين في حصار فيينا جملة من التغيرات، فقد شهدت الدولة العثمانية اضطرابات داخلية كبيرة، مثل تمردات القبائل والمشاكل الاقتصادية، وهو ما دفع بتبني الإصلاحات التي حاول من خلالها بعض السلاطين تحديث الجيش والإدارة، ولكنها لم تكن كافية لإنقاذ الإمبراطورية.

وقد تبنت العديد من الدول سياسات الإصلاح لتحديث الدولة، ومن أبرزها:

- إصلاحات الامبراطور ميجي في اليابان في القرن التاسع عشر، وقد كانت إصلاحات شاملة مكنت اليابان من التحول من دولة زراعية إلى قوة صناعية وعسكرية عظمى؛

- الإصلاحات البروسية: ركزت هذه الإصلاحات على بناء جيش قوي وإدارة مركزية، مما ساهم في توحيد ألمانيا؛ وكانت رد فعل تجاه هزيمة البروسيين على يد نابليون الأول في معركة يينا-أويرشتيد عام 1806.

شملت الإصلاحات العثمانية الإصلاح العسكري، فقد تم حل الجيش الإنكشاري الذي كان يتمتع بنفوذ كبير ولكنها أصبحت عائقًا أمام التحديث، وتأسيس جيش نظامي على النمط الأوروبي، مجهز بأحدث الأسلحة وفق التدريب الحديث. في المجال الإداري عمل الإصلاح على تحديث الجهاز البيروقراطي ووضع قوانين جديدة تنظم عمل الإدارات الحكومية. والإصلاح القضائي تم من خلال توحيد القوانين في مختلف أجزاء الإمبراطورية، وإنشاء محاكم جديد. أما في الإصلاح الاقتصادي فقد استهدف تشجيع التجارة والصناعة، وإنشاء بنوك جديدة. كما شملت الإصلاحات مجال التعليم من خلال إنشاء مدارس حديثة على النمط الأوروبي، لتعليم العلوم الحديثة واللغات الأجنبية.

واجهت الإصلاحات مقاومة شديدة من قبل المحافظين والطبقات الحاكمة التي كانت متمسكة بالنظام القديم، كما شكل الفساد المنتشر في أجهزة الدولة عقبة في تنفيذ الإصلاحات. كما أن الموارد المالية المحدودة ضيقت تنفيذ الإصلاحات على نطاق واسع.

الدولة العثمانية: التفتيت من الداخل

بالموازاة مع التراجع الخارجي العثماني، بدأت تظهر بوادر التأثر بالثقافة الأوروبية في بعض طبقات المجتمع العثماني، مما أثار جدلاً واسعًا، وبرزت موجة من الشعور القومي، في شكل حركات قومية تطالب بالاستقلال في مختلف أجزاء الإمبراطورية، مثل اليونان

والصرب والبلغار والعرب. وأدت هذه الحركات إلى اندلاع الحروب البلقانية في بداية القرن العشرين، مما أدى إلى مزيد من التفتت للإمبراطورية.

لم تكن المواجهة العسكرية الأسلوب الوحيد في المواجهة مع العثمانيين، لكنّ الأوروبيين شجّعوا التمرّد الداخلي وحركات الاستقلال التي انتشرت في المشرق العربي وفي البلقان. ففي هاته الفترة عقد اتّفاق الدرعية الذي أنشأ الدولة السعودية الأولى في 1744 بناءً على تحالف يتولّى فيه الإمام محمّد بن سعود الشؤون السياسية، بينما يتولّى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الشؤون الدينية. وتمّ تكليف محمد علي باشا والي مصر بالقضاء على الدولة السعودية الأولى حيث قضي عليها في 1818، علماً أنّ العثمانيين حكموا رمزياً مكّة والحجاز التي يحكمها الأشراف بدعم من والي مصر منذ 951م.

انتعشت حركة القومية العربية والاستقلال عن الدولة العثمانية، من خلال إعلان العرب ظاهر العمر في فلسطين سنة 1721م؛ وأحمد الجزّار في سوريا؛ وعلي بك الكبير في مصر بتشجيع من بريطانيا، لتعزيز الطريق البرّي المؤدّي إلى الهند؛ وسليمان باشا في العراق وآل سعود في السعودية، واغتنم الروس الفرصة لاقتطاع القرم.

وفي 1718م عقدت اتفاقية بساروفيتش بين النمسا والدولة العثمانية تخلّت الأخيرة بموجبها عن ولاية تمسوار وبلغراد وجزء من بلاد الصرب وبلاد الأفلاق. وانضمّت روسيا للمعاهدة في 1720، واكتسبت حقّ مرور التجّار والحجّاج الروس دون رسوم. واسترجعت

الدولة العثمانية بلغراد وأعادتها إلى سابق عهدها في 1739م. وفي 1762 اجتاحت كاثرين الثانية امبراطورة روسيا الدولة العثمانية إحياءً للدولة البيزنطية، وتواصلت الحرب بين الطرفين إلى غاية معاهدة كوجك قينارجة في 1774م التي كبّلت الدولة العثمانية. وكان من مكاسب روسيا استقلال تتار القرم، وحرية التجارة والملاحة في البحرين الأبيض والأسود وعبور المضائق، وحقّ حماية المسيحيين في الأراضي العثمانية وإقامة كنيسة أرثوذوكسية في اسطمبول وعلى رأسها أساقفة روس.

في 1787 نشأ تحالف ضمّ الدولة العثمانية وبريطانيا وبروسيا بدعم فرنسي ضدّ روسيا والنمسا، انضمّت إليه فيما بعد بولونيا، ثمّ عقد صلح بين النمسا والدولة العثمانية في 1791م لمدّة 9 أشهر، ثمّ مع روسيا، وهو الصلح الذي كرّس ضعف الدولة العثمانية. ورغم وجود تحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا، فقد أقدم نابليون بونابارت على غزو مصر التي كانت ولاية عثمانية في 1798. ولمواجهة خطر انتشار الثورة الفرنسية برز تقارب روسي عثماني، وفي 1798 أعلنت روسيا الحرب على فرنسا، وعقد اتفاق روسي بريطاني عثماني ضد فرنسا. وانهزم نابليون في مواجهة مع الدولة العثمانية والإنجليز واضطرّ للخروج من مصر في 1801.

كانت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث(1789-1808) في حالة عزلة وتراجع لصالح الدول الأوروبية، حيث لم تتمكن من متابعة التطورات المحيطة، وتلاحقت الهزائم العسكرية للجيش العثماني. ورغم عودة العلاقات العثمانية الفرنسية في مواجهة روسيا،

إلاّ أنّ فرنسا انتهكت مرّة أخرى الحلف مع الدولة العثمانية عندما قرّرت احتلال الجزائر في 1830 تتويجاً لحصار دام لثلاث سنوات، بعد تحطيم أسطولها البحري في معركة نافارين في 1827.

حاول السلطان عبد الحميد الثاني(1876-1909) الوقوف في وجه الأطماع الأوروبية ووقف تراجع الدولة. وقد تميّز عهده بتوسّع نطاق التعليم، والانفتاح على الغرب، كما برزت فيه المطامع الصهيونية في أرض فلسطين، وظهرت الأزمة الأرمينية. وباندلاع الحرب العالمية الأولى شاركت الدولة العثمانية إلى جانب الإمبراطورية الألمانية، لكسر عزلتها السياسية المفروضة عليها من قبل الدول الأوروبية منذ العهد الحميدي، وعلى الرغم من تمكّنها من الصمود على عدّة جبهات، فقد عانت من الثورات الداخلية التي أشعلتها الحركات القومية في الداخل العثماني، ردًّا على عنصرية حزب الاتحاد والترقّي والتحريض الأجنبي.

ولم تتمكّن الدولة العثمانية في النهاية من الصمود بوجه القوى العظمى، فاستسلمت للحلفاء سنة 1918م. وانتهت بصفتها السياسية سنة 1922م، وأزيلت بحكم القانون في 1923م، بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائيًّا في 29 أكتوبر من نفس السنة عند قيام الجمهورية التركية.

أدّى سقوط الدولة العثمانية إلى نشأة أغلب دول الشرق الأوسط المعاصرة، عقب تقاسم بريطانيا وفرنسا تركة "الرجل المريض" في العراق والشام بموجب اتفاقية سايكس بيكو، بعد أن انتزعت منها سابقًا مصر وتونس والجزائر.

تعرضت الدولة العثمانية إلى التفتيت، كما حدث في الأراضي التي كانت تابعة لها في منطقة البلقان، عبر ما يعرف بالحروب البلقانية، وهي سلسلة من النزاعات المسلحة وقعت في شبه جزيرة البلقان في بداية القرن العشرين، وتحديدًا في عامي 1912 و1913. كانت هذه الحروب نتيجة لتزايد التوترات القومية في المنطقة، والرغبة في الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية المتدهورة. وقد لعبت القوى العظمى مثل روسيا والنمسا والمجر دورًا في تأجيج الصراعات في المنطقة، حيث سعت كل دولة إلى تحقيق مصالحها الخاصة.

تشكل التحالف البلقاني في حرب البلقان الأولى بين سنتي 1912و 1913 بين دول بلقانية وهي كل من بلغاريا، وصربيا، واليونان، والجبل الأسود بهدف طرد العثمانيين من أوروبا. وحقق التحالف البلقاني انتصارات كبيرة على العثمانيين، مما أدى إلى تراجع النفوذ العثماني في المنطقة. وبعد الانتصار، نشأت خلافات بين الدول البلقانية حول تقسيم الأراضي التي تم الاستيلاء عليها، مما مهد الطريق لحرب جديدة.

اندلعت حرب البلقان الثانية في 1913 بين بلغاريا من جهة، وصربيا واليونان وتركيا من جهة أخرى، بسبب الخلافات على تقسيم الأراضي، وتعرضت بلغاريا للهزيمة، مما أدى

إلى تقسيم أراضيها وتقوية نفوذ صربيا واليونان. أدت الحروب إلى تغيير جذري في الخريطة السياسية للبلقان، حيث ظهرت دول جديدة مثل ألبانيا، وتوسعت دول أخرى مثل صربيا واليونان، كما أنها لم تتمكن من حل المشاكل الأساسية في المنطقة، بل زادت من حدة التوترات القومية والطائفية. وقد كانت الحروب البلقانية بمثابة شرارة أشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى، حيث ساهمت في زيادة التوتر بين القوى العظمى.

معاهدة سيفر 1920

أجبرت الدولة العثمانية على إمضاء معاهدة سيفر، وهي إحدى المعاهدات التي فرضتها الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى على الدولة العثمانية المهزومة في عام 1920. كانت هذه المعاهدة بمثابة الضربة القاضية للإمبراطورية العثمانية، حيث قسمت أراضيها الواسعة بين الدول الأوروبية، وحرمت الأتراك من الكثير من أراضيهم التي كانوا يحكمونها لقرون.

فرضت المعاهدة العديد من البنود المجحفة في حق الدولة العثمانية، ومن أهمها

- تقسيم الأراضي العثمانية: قسمت المعاهدة أراضي الإمبراطورية العثمانية بين الدول المنتصرة، حيث حصلت بريطانيا وفرنسا على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط، وحصلت اليونان على مناطق واسعة في الأناضول؛

- تقييد الجيش العثماني: فرضت المعاهدة قيوداً شديدة على الجيش العثماني، وحرمته من الكثير من أسلحته ومعداته؛

- الحكم الدولي على مناطق واسعة من الأناضول.

أدى إقرار المعاهدة إلى غضب شعبي عارم في الأناضول، مما أدى إلى اندلاع حرب الاستقلال التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، رفضاً للمعاهدة التي اعتبرها الأتراك بمثابة استسلام وذل، مما دفعهم إلى الكفاح من أجل استعادة استقلالهم. بعد الانتصارات التركية، تم توقيع معاهدة لوزان عام 1923 بين تركيا من جهة، وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان ودول أخرى من جهة أخرى، والتي ألغت معاهدة سيفر وأعادت رسم الحدود التركية، لتؤسس جمهورية تركيا الحديثة على أسس علمانية وقومية، بما يمثل قطيعة مع الخلافة العثمانية والإسلامية الممتدة إلى العهد النبوي.

العلاقات الدولية في العصور الوسطى الأوروبية

شكلت العلاقات الدولية في القرون الوسطى في أوربا شبكة معقدة من الولاءات والصراعات تميزت العلاقات الدولية في العصور الوسطى بكونها شبكة معقدة ومتشابكة من الولاءات الشخصية والالتزامات الإقطاعية والصراعات الدينية والسياسية. على عكس النظام الدولي الحديث القائم على الدول القومية ذات الحدود الواضحة، كانت العلاقات بين الكيانات السياسية في العصور الوسطى أكثر مرونة وتأثراً بعوامل عديدة.

أبرز سمات العلاقات الدولية في العصور الوسطى

- **الإقطاعية**: كان النظام الإقطاعي هو الأساس الذي بنيت عليه العلاقات السياسية في أوروبا. حيث كان الولاء الشخصي للإقطاعي هو القاعدة، وكانت الحدود بين الدول غامضة ومتغيرة باستمرار.
- **الدين**: لعب الدين، وخاصة المسيحية، دوراً حاسماً في تشكيل العلاقات الدولية. الحروب الصليبية هي مثال واضح على ذلك، حيث تحولت الصراعات السياسية إلى صراعات دينية.
- **التجارة**: على الرغم من الصراعات، كانت التجارة عاملاً مهماً في تشكيل العلاقات الدولية وربط المناطق المختلفة ببعضها البعض، وخاصة مع الشرق كالصين والهند، حيث كانت الطرق التجارية مثل طريق الحرير تربط بين الشرق والغرب، مما ساهم

في تبادل الثقافات والمعارف، وكانت المدن التجارية مثل البندقية وجنوة تلعب دوراً حيوياً في التجارة الدولية.

- **التحالفات الزواجية**: كانت الزيجات بين أفراد العائلات الحاكمة وسيلة شائعة لبناء التحالفات السياسية.
- **الفروسية**: كانت الفروسية نظاماً اجتماعياً عسكرياً يرتكز على الشرف والولاء، وكان له تأثير كبير على العلاقات الدولية.
- **غياب دولة مركزية**: لم يكن هناك نظام دولي موحد، ولم تكن هناك قوة مركزية تحكم العلاقات بين الدول، وهو ما سيتغير بنشوء الدول القومية ونظام واستفاليا.

التحديات التي واجهت العلاقات الدولية في العصور الوسطى

- **عدم الاستقرار**: كانت العلاقات الدولية في حالة تغير مستمر بسبب الصراعات المستمرة والتغيرات السياسية.
- **الافتقار إلى الاتصالات**: كانت وسائل الاتصال محدودة، مما جعل من الصعب إدارة العلاقات الدولية على نطاق واسع.
- **التنوع الثقافي**: كانت هناك تنوع كبير في الثقافات والقيم، مما جعل من الصعب التوصل إلى تفاهم مشترك.

أمثلة على العلاقات الدولية في العصور الوسطى

الحروب الصليبية: سلسلة من الحروب الدينية التي شنتها الدول المسيحية الأوروبية لاستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين.

صراع الورثة: صراعات مستمرة على العروش والارث بين العائلات الحاكم.

التحالفات بين الملوك: تشكيل تحالفات عسكرية وسياسية بين الملوك لحماية مصالحهم المشتركة.

العلاقات السياسية: كانت العلاقات السياسية معقدة، حيث كانت القوى السياسية مثل الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية العثمانية تلعبان دورًا كبيرًا في تحديد السياسات والعلاقات بين الدول.

العلاقات الدولية من صلح واستفاليا 1648 إلى معادة فيينا 1815

أنهت معاهدة واستفاليا الحروب الدينية ووضع حداً للحروب الطويلة بين الكاثوليك والبروتستانت، وفتح الباب لتعدد الأديان داخل الدول، وأسس مفهوم الدولة القومية والسيادة الوطنية، ووضع الأسس لنظام الدول الحديثة. وأرسى مبادئ العلاقات الدولية حيث أكد على أهمية التفاوض والتسوية السلمية للنزاعات، ووضع قواعد للتعامل بين الدول.

هيمن توازن القوى الأوروبية على الساحة الدولية، حيث تنافست الدول الأوروبية الكبرى على النفوذ والتوسع الاستعماري. وأدت الثورات الصناعية إلى تغييرات دراماتيكية في الاقتصاد والاجتماع، وشجعت على التنافس الاقتصادي والتوسع الاستعماري، حيث سيطرت الدول الأوروبية على أجزاء كبيرة من العالم، مما أدى إلى صراعات وتوترات.

- **البيئة الدولية في القرن السادس عشر**

كان القرن السادس عشر في أوروبا مرحلة انتقالية بين العالمين القديم والحديث، وبين معتقدات القرون الوسطى وتطلّعات العصر الحديث. وقد عجزت في نهايته سلسلة الحروب عن تقديم الحلول لاستمرار الحروب وتحقيق السلام. وبدأ التفكير في إيجاد منظومة جديدة من القواعد لتنظيم العلاقات بين القوى الكبرى.[16]

[16] Knusten, op. cit, p. 48.

- **العامل التكنولوجي/تطور التسليح**

وقد كان لاختراع الأسلحة النارية الأثر الكبير في تطوّر العلاقات، حيث عزّزت من قدرة من يمتلكها، بينما أوقعت من لا يملكها في دوّامة التهديد الأمني. كما أنّ تطوّر صناعة البارود عزّز من الحروب بين الدول الأوروبية، ما اضطرّ الأمراء والملوك إلى البحث عن سبل لتعزيز موارد الخزينة لتغطية النفقات العسكرية المتزايدة.[17]

- **تطور الصناعة البحرية**

وبالموازاة مع ذلك، تطوّرت الصناعة البحرية حيث مكّنت من صناعة سفن أحدثت ثورة في حركية الاتصالات والتجارة الدولية وتنقّل الثروة. وقد كانت السبب في حركة الاستكشافات الجغرافية، واحتلال أمريكا وإفريقيا وآسيا. وقد ساهم ذلك في نشوء قاعدة الاقتصاد الدولي الحديث. 44[18] كان الطريق إلى الشرق كان صعباً وخطراً، بسبب انتشار اللصوص والتقلّبات الجوية، لذلك احتاج الأوربيون إلى تأمين الطريق من طرف العثمانيين والمماليك في مصر، الذين سعوا بدورهم للاستفادة من حركة التجارة المربحة، بفرض الرسوم والإتاوات.

وهذا ما جعل الأوربيين يسعون لإيجاد بدائل للوصول إلى شرق آسيا عبر البحار. وكانت الفكرة في البداية هي الإبحار نزولاً من شواطئ إفريقيا الغربية بحثاً عن طريق إلى الهند.

[17] Ibid.
[18] ibid.

نجحت المحاولة التي انطلقت بعيدا عن البحر المتوسط بقيادة البرتغال ثم إسبانيا باستخدام ملّاحين إيطاليين، منهم كريستوفر كولومبوس الذي فكّر في أنّه يمكن السفر إلى الهند غرباً عبر المحيط الأطلسي، وبذلك تمكّن من "اكتشاف العالم الجديد،" أمريكا التي سمّيت باسم قبطان إيطالي يدعى أميريغو فيسبوتشي.

- **التغييرات الفكرية**

وعلى المستوى الفكري، عزّزت أفكار جون كالفن ومارتن لوثر الإصلاحية ضمن حركة الإصلاح الديني المذهب الفرداني وظهور الليبرالية في شقّيها الاقتصادي والسياسي، ورفض الهرمية التي ترعاها الكنسية الكاثوليكية. ففي 1517 كتب لوثر لائحة مشكّلة من خمسة وتسعين بنداً ينتقد فيها ممارسات الكنيسة الفاسدة. وبعد شهر من ذلك، أصبحت أفكار لوثر محلّ نقاش في كلّ أوروبا. وفي النهاية استقرّ الأمر باعتناق المناطق الفقيرة من شمال غرب أوروبا البروتستانتية مثل شمال ألمانيا، وإنجلترا، واسكندنافيا.[19]

1- **حرب الثلاثين عاما 1618-1648**

[19] Ibid, p. 48.

يرجع السبب في انتعاش حركة الإصلاح الديني إلى دعوات الاحتجاج على انحرافات الكنيسة الكاثوليكية، التي أصبحت تتصرف كدولة داخل الدولة، حيث اضطهدت المفكّرين الأحرار عبر محاكم التفتيش، وتعسّفت في تمويل مشاريعها وحروبها عن طريق إعلان الحرب وجمع الضرائب وبيع صكوك الغفران، وذلك في مواجهة قوة صاعدة هي الدولة القومية المدعومة بالطبقة المتوسّطة والنبلاء.

في 1555 عقد صلح أوكسبورغ لعقد توافق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت. وفشل الصلح في ذلك، بعد الصراع حول أملاك الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا التي أصبحت محلّ الأطماع البروتستانت الذين اعتدوا عليها، مما أزعج الكاثوليك الألمان. كما فشل الصلح بسبب عدم الاعتراف بالكالفينية والتسامح الديني.[20] وفي 1619 نشأت عصبة الإمارات الألمانية الكاثوليكية بقيادة بفاريا، مما أدى إلى انقسام الألمان دينياً وسياسياً إلى حزبين استعان كلاهما بالدول الأجنبية وتحولت الحرب بينهما إلى حرب دولية.

عملت أسرة هابسبورغ النمساوية على عصرنة الإمبراطورية الرومانية المقدسة حامية الكاثوليكية. كان الطرفان المتنازعان في حرب الثلاثين عاما فرنسا وأسرة هابسبورغ النمساوية من جهة في مقابل إسبانيا وهولاندا، وبين لكي الدانمارك والسويد.

[20] سعد حقي توفيق، **تاريخ العلاقات الدولية**، جامعة بغداد، العراق، 2009، ص 10.

بدأت حرب الثلاثين عاماً في بوهيميا البروتستانتية اللوثرية التابعة حينها لأسرة هابسبورغ 56، فقد قامت ثورة عندما حاول الامبراطور رودولف الثاني تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانيا، عبر إنهاء الانقسام الديني والسياسي. ثار البروتستانت في بوهيميا سنة 1618م وتجاوزت ألمانيا الجنوبية والشمالية وتعدت إلى دول أخرى، وكانت في الوقت نفسه حرباً دينية كاثوليكية/بروتستانتية، وحرباً على الزعامة الأوروبية على الأراضي الألمانية بين أسريتي هابسبورغ الألمانية وبوربون الفرنسية. وقد عقد 57 صلح واستفاليا في 24 أكتوبر 1648 لإيجاد تسوية لهذا النزاع الأوروبي بحضور ممثّلين عن إسبانيا، وفرنسا، والسويد، وهولندا، وسويسرا، والبرتغال والبندقية وإيطاليا وممثل عن البابا.

وقد كان من بنود الاتفاق في المسألة الدينية منح حرية الاعتقاد للأمراء، والاتفاق على مبدأ التسامح الديني، وحلّ مسألة أملاك الكاثوليك والبروتستانت، والمساواة بين الولايات البروتستانتية مع الكاثوليكية. وعلى المستوي السياسي مكّنت 60 السويد (الملك غوستاف) من السيطرة على بحر البلطيق، وأصبحت من الدول الكبرى لكنها لم تتمكن من الحفاظ على مكانتها. وتمكنت فرنسا من ضم الألزاس النمساوية وبعض الأراضي الألمانية والإيطالية.[21]

كان من نتائج الصلح تفتّت كيان الإمبراطورية الرومانية المقدّس وإضعاف قوة الامبراطور، وتعززت استقلالية الإمارات الألمانية والإمارات البروتستانتية، وأصبح أمير

[21] نفس المرجع.

براديبورغ ثاني أقوى شخصية بعد الامبراطور في ألمانيا، وتشكلت بذبك نواة لتأسيس أقوى الملكيات الألمانية وهي مملكة بروسيا بهدف توحيد ألمانيا، كما استقلت سويسرا وهولندا عن الإمبراطورية. وحافظت الدول على عقيدتها بعد الحرب الكاثوليكية البروتستانتية كما كانت عام 1648، وبذلك تشكّلت خريطة سياسية وفق الانتماء الديني، حيث تبنّت الكاثوليكية الملكية المطلقة، بينما تبنّت الكالفينية الديمقراطية وشجّعت التوجّه الفردي، بينما التزمت اللوثرية الوسط بين التوجهين بميولها الملكية. ففرنسا الكاثوليكية تنبت الملكية المطلقة، فيما شكلت إنجلترا وهولندا مثالين للملكية الدستورية البرلمانية.

بهذه التغيرات الجوهرية دخلت أوروبا والعالم معها عهد العصر الحديث، فظهرت الدول بالمعنى الحديث عبر مجلس الإمبراطورية المتكوّن من ثلاثمائة ولاية/حكومة ذات سيادة، وتراجعت سيطرة الكنيسة مع تصاعد سلطة الملكية، وتقدمت المصالح التجارية والقومية على غيرها من الاعتبارات التقليدية. وعلى المستوى الدولي، استقرّ مبدأ التمثيل الديبلوماسي، والمساواة بين الدول المستقلّة ذات السيادة في نظم لا يخضع فيها الملك لا للكنيسة ولا للامبراطور، وتعزّزت المعاهدات التجارية والتحالفات الدفاعية. واعتبرت فرنسا والسويد(ضعف) ضامنتين للمعاهدة، فيما استفادت فرنسا من قوّة ديبلوماسية بموجب هذا الصلح.

ساهمت معاهدة واستفاليا في ظهور القانون الدولي، حيث توصلت القوى الأوروبية إلى ضرورة وضع قواعد القانونية لحماية الدول المحايدة ومعالجة المرضى والجرحى والتدمير، نشر غروشيوس مقال عن قانون الحرب والسلم 1625 دعا فيه إلى التسامح الديني، مع اعترافه بأن الحرب لا بد منها، لكن مع ذلك يجب حصرها في نطاق ضيق لا تتعدى الدول التي تشترك فيها، وتجنب أعمال السلب والنهب وإراقة الدماء. وهذا ما شجع مبدأ توازن القوى وتشكيل تحالفات لمنع الحرب والسياسات التوسعية كوسيلة للحفاظ على السلام.

اعتبرت الدولة بموجب الاتفاقية محورا للعلاقات الدولية، باستبعاد القوى العالمية كالكنيسة والامبراطورية، ليس سلاما رومانيا فرضته روما على الشعوب التابعة لها، وليس سلاما مسيحيا فرضته الكنيسة على رعاياها من الملوك والأمراء، بل كان سلاماً خطّطت له فرنسا للقضاء على الإمبراطورية الرومانية المقدسة عبر مبدأ التوازن الذي استمرّ إلى غاية الحرب العالمية الأولى، ليستبدل بمفهوم الأمن الجماعي كأساس للمحافظة على السلم في العالم. كما ساهمت الاتفاقية في حسم النقاش الديني وحركة الإصلاح الذي كان يبا في الصراعات الأوربية باستمرار.

2- صلح أوتريخت ومؤتمر فيينا

انتهجت فرنسا سياسة توسّعية خلافاً لمبدأ توازن القوى، وردا على ذلك شكّل تحالف دولي ضدّ فرنسا في حرب طويلة انتهت بصلح أوتريخت 1713. فرنسا ربحت تعيين فيليب الخامس حفيد لويس ملكا على إسبانيا وتخلت عن مساعي غزو بلجيكا. ومع تعاظم قوّة روسيا، تحوّلت بريطانيا إلى قوّة عظمى بعد السيطرة على قاعدة جبل طارق. كما شهدت هذه الفترة حدثين هامّين على المستوى الدولي هما استقلال الولايات المتّحدة الأمريكية في 1776، وقيام الثورة الفرنسية في 1789 وتهديدها للجوار الأوربي.

ولمواجهة فرنسا نشأ اتّحاد دولي ضدّها، انتهى الوضع إلى تنظيم مؤتمر فيينا في 1815 لإعادة ترتيب المشهد داخل أوروبا وإعادة التوازن بين الدول الأوروبية الكبرى، والعمل على مواجهة الأفكار الثورية الفرنسية عبر إقرار مبدأ المشروعية الذي يعني إعادة الملوك إلى عروشهم. كما تمّ الاتفاق على الحياد الدائم 53 وحرية الملاحة في الأنهار الدولية، وتنظيم العلاقات الديبلوماسية وكذا تحريم تجارة الرقيق.

كان مهندس مؤتمر فيينا المستشار النمساوي ميترنيخ الذي كان دافعه الخوف على بلاده من الثورات، وقد ساهم في تشكيل حلف مقدّس للمحافظة على السلام واستخدام التدخّل العسكري إذا تطلّب الأمر، ضمّ كلًّا من روسيا، وبروسيا، والنمسا وبريطانيا. وقد نجح الحلف

مؤقّتاً إلى غاية قيام الثورات القومية في ألمانيا والنمسا الذي أحبط النظم الإمبراطورية الرجعية في هولندا، وبلجيكا، وفرنسا، والنمسا، وإيطاليا وألمانيا، وبداية تفكّك الإمبراطورية العثمانية.

اختلّت حالة التوازن بين القوى الأوروبية بسبب اعتماد التحالفات السرية والاحتفاظ بالجيوش الكبيرة المتأهّبة للحرب على خلاف الاتفاق، والتنافس على المستعمرات، وتقوية الجيوش والتحالفات، وهو ما قسّم أوروبا إلى معسكرين كبيرين انتهت بالمواجهة المباشرة في الحرب العالمية الأولى 1914. كما شكّل نجاح الثورة الشيوعية في روسيا سنة 1917 عاملاً آخر للانقسام الأوروبي.

3- القوى الأوروبية في القرن التاسع عشر

- ألمانيا والحرب الفرنسية-البروسية 1870-71 والوحدة الألمانية

في جويلية 1870 اندلعت الحرب الفرنسية البروسية أو الحرب السبعينية، كانت صراعًا مسلحًا نشب بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية بقيادة نابليون الثالث والولايات الألمانية للاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا. وكان سبب الحرب طموح بروسيا بقيادة المستشار أوتو فون بيسمارك لتوحيد الإمارات الألمانية، وتخوّف فرنسا من تغيّر موازين القوى الأوربية إذا نجحت بروسيا في مسعاها. كانت الحرب على فرنسا العدوّ التقليدي فرصة بيسمارك لإذكاء الشعور الوطني الألماني وإقناع دول جنوب ألمانيا المستقلّة للاتحاد مع الدول الألمانية الشمالية الواقعة تحت الهيمنة البروسية ومن ثمّ توحيد ألمانيا.

كانت الحرب وبالاً على فرنسا، وكان واضحاً التفوّق الألماني جيشاً وحلفاء مقارنة بفرنسا التي استسلم أحد جيوشها المشكّل من ثمانين ألف عسكري وحتّى الامبراطور الفرنسي نفسه، وبعدها انهزم جيش آخر قوامه مائة وخمسين ألف تبعه سقوط باريس في 28 جانفي 1871.

ولترسيم هذا الوضع عقدت اتفاقية فرانكفورت في 10 ماي 1871 التي فرضت شروطاً قاسية على فرنسا، حيث تمكّنت بروسيا من ضمّ مقاطعتي الألزاس واللورين الغنيّتين بالموارد الطبيعية والغذائية وصناعة النسيج، بالإضافة إلى تحميل فرنسا مبلغ خمسة ملايين فرنك لصالح بروسيا، واحتلال أجزاء منها. فيما كانت الإهانة الكبرى لفرنسا هي احتفال الجيش البروسي

في باريس. ساهمت هذه الأوضاع في نشوء تمرّد في باريس، في مارس 1871 ممّا استدعى تدخّل الجيش الفرنسي لاستعادتها بالقوّة في ماي من نفس السنة.

وكان من نتائج تلك الحرب توحيد ألمانيا، وتتويج فيلهلم الأوّل ملك بروسيا امبراطورا لألمانياً في جانفي 1871. وقد غيّر توحيد ألمانيا الإمبراطورية الألمانية، بين دول جنوب ألمانيا بفاريا وفيرتمبرغ وعشرة ملايين من الألمان في النمسا، ميزان القوى في أوروبا الوسطى وهدّد التوازن في أوروبا، وساهم في تراجع فرنسا كقوّة عسكرية، وبروز روسيا كقوّة منافسة لألمانيا، فيما احتلّت إيطاليا مدينة روما بعد خروج القوّات الفرنسية التي كانت تحمي البابوية. وقد بيّنت الحرب تغيّر طبيعة الحروب، فقد أصبحت حروباً خاطفة ترتكز على الإعداد الاحترافي للجنود الذي اعتمده الألمان مقابل الجيش الفرنسي المشكل أساسا من المزارعين.

قاد المستشار بيسمارك الحرب ضد الدانمارك والنمسا وفرنسا لتحقيق الوحدة الألمانية، وكانت النتيجة قوّة تسلّطية وعسكرية ألمانية بقيادة القيصر(الامبراطور) والمستشار(رئيس الوزراء). عرفت الفترة من 1871-1890 سيطرة شخصية بيسمارك على حساب القيصر وليام الأول، وتوالت شخصيات كثيرة بعده، لكن لم تكن في مستواه وكاريزميته، إلى غاية تولّي أدولف هتلر سنة 1933 منصب المستشارية.

بعد الوحدة على المستوى السياسي، أقرّ نظام لتقاسم للسلطة بين القيصر والمستشار الألماني، وشهدت ألمانيا تطوّراً صناعياً واقتصادياً واجتماعياً. وفي بداية 1914، أصبحت ألمانيا ثاني

أكبر قوّة بعد الولايات المتّحدة في العالم، ما اعتبر تهديداً للدول الأوروبية. ساد أوروبا تنافس اقتصادي حول الأسواق والموارد.

ونظراً لتحسّن الوضع الاقتصادي، عرفت ألمانيا زيادة سكّانية، صاحبتها توتّرات اجتماعية بسبب تزايد ضغط الطبقة المتوسطة والعمّال، وتحدّي الأرستقراطية البروسية مالكة الأراضي التي تدعى الجونكرز. ولتجاوز ذلك استعمل الامبراطور ويلهالم الثاني سياسة "الامبريالية الاجتماعية" لشغل الرأي العامّ عن التوتّرات الداخلية عبر سياسة ما وراء البحار الاستعمارية أو الفالتبوليتيك.

- **فرنسا**

أما فرنسا فقد بقيت بالنسبة للدول الأوروبية مصدر تهديد حتى بعد هزيمتها في 1815. وبالفعل انتهجت فرنسا في الفترة من 1815 إلى 1852 سياسة سلمية تجاه الدول الأوربية، ولم يمنعها ذلك من احتلال الجزائر سنة 1830 في عهد الملك لويس فيليب. لكنّها تبنّت سياسة هجومية في عهد الامبراطور نابوليون الثالث(ابن أخ نابليون بونابارت) في الفترة ما بين 1852 و1870، بداية مع تشكيل تحالف فرنسي بريطاني في حرب القرم سنة 1854 ضدّ روسيا تمكّن من هزيمتها، وخوض حرب لتحرير شمال إيطاليا إلى جانب الإيطاليين من الحكم النمساوي. وبحلول 1870، استرجعت فرنسا موقع القوّة السياسية والعسكرية العظمى في أوروبا.

ومع ضعف الجمهورية الثالثة وعدم استقرار سياستها الخارجية بسبب تغيّر الحكومات، تعزّزت النزعة التوسعية الامبريالية لفرنسا. وفي هذه الظروف انقسمت الطبقة السياسية الفرنسية بين اليسار المسالم، واليمين القومي المنادي بالانتقام من هزيمة 1871 ضدّ بروسيا واسترجاع الألزاس واللورين الذي تحوّل إلى مطلب شعبي. وفي عقد السبعينيات عادت فرنسا إلى احترام التحالف التقليدي الليبرالي الفرنسي البريطاني، لكن العقد الموالي عرف عودة المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وبريطانيا خاصّة في إفريقيا، وتحوّلت فرنسا إثر ذلك إلى قوّة امبريالية كبرى باحتلال مناطق جديدة في إفريقيا وآسيا. ثم تحوّلت مرة أخرى إلى التحالف مع الإمبراطورية الروسية في 1894 لمواجهة كلّ من القوّة الألمانية المتصاعدة وبريطانيا. ولتنظيم العلاقات الفرنسية البريطانية في المستعمرات، وقع اتفاق استعماري ضمن سياسة تقارب، تحوّلت في 1914 إلى تحالف عسكري لمواجهة السلوك الألماني العدائي ضدّ فرنسا فيما بين 1905-1911.

وضمن هذا الاتفاق الاستعماري، وقعت اتفاقية سايكس بيكو سنة 1916 لاقتسام الولايات العربية العثمانية خارج الجزيرة العربية. فخصصت الاتفاقية لبريطانيا فلسطين والأردن وجنوب العراق وميناءي كل من حيفا وعكا، فيما حصلت فرنسا على جنوب شرق تركيا، وشمال العراق، وسوريا ولبنان. ووافقت إيطاليا على هذا الاتفاق سنة 1917 عبر اتفاقية سانت جان دي مورين بحيث يكون لها جنوب الأناضول. أما منطقة فلسطين ذات

الحدود الأصغر من فلسطين المنتدبة اللاحقة فإنها ستكون تحت "إدارة دولية." وبناء على وعد وزير الخارجية البريطاني بلفور للحركة الصهيونية، منحت فلسطين إقامة وطن قومي لليهود، تمّ تجسيده بإقامة إسرائيل سنة 1948.

- بريطانيا

ساهمت بريطانيا في هزيمة نابليون ودعم العمل الديبلوماسي الأوروبي لتفادي الحرب، كم وقفت أمام احتلال روسيا لاسطنبول والدولة العثمانية التي عرفت دعماً بريطانياً، كما دعمت حرب القرم 1854-56 بين روسيا والدولة العثمانية لمنع التقارب الروسي العثماني. وفي هاته الفترة، توسّعت التجارة البريطانية خارج أوروبا، وأصبحت قوة استعمارية كبرى أو "الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس،" وهو ما جعلها الدولة الثالثة صناعياً بعد كلّ من الولايات المتّحدة وألمانيا.

تحمل الفترة الممتدة من 1870-1914 معنىً تاريخياً عميقاً، فهي تمثّل فترة تاريخية مهمّة في تاريخ العالم، سيطرت فيها القومية، وبدأت بالحرب بين قوّتين عظميين، وانتهت بحرب بين كلّ القوى العظمى.1 كانت مرحلة تطوّر صناعي وحضري في إطار تنافس أوروبي عسكري لم يكن بعيداً عن خيار الحرب. كما كانت فترة امبريالية بامتياز، فقد تبنّى الأوروبيون فكرة التفوّق على الشعوب المتخلفة والحقّ في احتلال بلدانهم 2، لكن التفوق

كفكرة في الحقيقة كان مدعوماً بالقوة العسكرية التي مكّنت القوى العظمى من اقتسام إفريقيا في القرن التاسع عشر.

وفي 28 جوان 1914 وقع اغتيال كلّ من الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند وزوجته صوفي دوقة هوهنبيرغ من طرف جافريلو برينسيب، كان ذلك الحدث السبب المباشر في اندلاع الحرب العالمية الأولى التي خلفت أكثر من سبعة عشر مليون قتيل وأكثر من عشرين مليون جريح.

الحربان العالميتان الأولى والثانية

في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى، كانت العلاقات الدولية معقدة ومليئة بالتوترات. كانت القوى العظمى في ذلك الوقت تتنافس على السيطرة والتأثير في العالم. وكانت الإمبراطورية البريطانية تمتلك أكبر الإمبراطوريات في العالم، مما جعلها تسيطر على مساحات واسعة من الأراضي في الخارج. الإمبراطورية الألمانية كانت تنمو بسرعة وتتحدى السيطرة البريطانية، مما أدى إلى تصاعد التوترات بين الدولتين. في حين كانت الإمبراطورية الفرنسية تسعى إلى استعادة مكانتها العالمية بعد هزيمتها في الحرب الفرنسية البلجيكية. كما كانت هناك التحالفات والمعاهدات التي تشكلت بين الدول، مثل التحالف الثلاثي بين الإمبراطورية البريطانية، الإمبراطورية الفرنسية، والإمبراطورية الروسية، والذي كان موجهًا ضد التهديدات الألمانية.

جسدت الحربان العالميتان الأولى والثانية انهيار التوازن القوى وتدمير العالم، وأسفرتا عن مقتل ملايين الأشخاص، وعرفت الفترة ما بين الحربين ظهور الأيديولوجيات المتطرفة، مثل الفاشية والشيوعية، والتي أدت إلى صراعات عنيفة. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، تم تأسيس منظمة الأمم المتحدة بهدف الحفاظ على السلام والأمن الدوليين. إلا أن ذلك لم يمنع من استقرار نظام دولي بعنوان الحرب الباردة، وقد كان محركه ذلك التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، الذي قسم العالم إلى قطبين، وأدى إلى سباق التسلح النووي، وظهور حروب الوكالة، حيث دعم كل من القطبين حركات التحرر الوطني والحروب الأهلية في دول العالم الثالث.

غير أن انهيار الاتحاد السوفيتي بفعل التراجع الاقتصادي والسياسي أدى إلى نهاية الحرب الباردة وظهور نظام عالمي أحادي القطب، عززت مرحلة جديدة في العلاقات الدولية، ميزتها ظاهرة العولمة التي زادت من الترابط بين الدول، وجعلت الاقتصاد العالمي أكثر تكاملاً، وظهور تحديات عالمية جديدة كالإرهاب الذي أصبح تهديداً عالمياً، وأدى إلى حروب في العديد من الدول؛ وتغير المناخ إذ أصبح قضية عالمية ملحة تشكل تحدياً كبيراً للعلاقات الدولية؛ وتوسع الصراعات الإقليمية التي لا تزال مستمرة في العديد من مناطق العالم، مثل الشرق الأوسط وأفريقيا.

4- التاريخ الاستعماري الأوربي

- الحروب الصليبية بداية للحركة الاستعمارية

بالنسبة لبعض الأوروبيين، خاصة من القساوسة، كان من غير المقبول أن تكون الأراضي المقدسة المذكورة في الكتاب المقدس خاضعة للمسلمين، وجاءت الفكرة بتجهيز جيش أوروبي لاسترجاعها. شملت الحروب الصليبية سبعة حملات رئيسية بين 1096 و1254، شارك فيها مئات الآلاف من الأوربيين. نجحت الحملات الصليبية في البداية، فقد احتلت بيت المقدس في 1099، وأقيمت إمارات صغيرة في شرق المتوسط. لكن معركة حطين في 1187 هزمت نهائيا بجيوش الفاطميين، رغم استمرار الحملات.

استمرت الحروب باسم المسيحية في شرق أوروبا وإسبانيا. تم تنصير ليتوانيا في 1386 بواسطة الفرسان الجرمان، وفي إسبانيا برزت حركة الاسترجاع *Reconquista* لاستعادة الأندلس من المسلمين. في 1212 ربح التحالف المسيحي معركة مهمة في لاس نافاس دو تولوزا، لكن تطلّب الأمر انتظار مائتين وخمسين سنة لاسترجاع كل الجزيرة الإيبيرية. كان آخر حاكم مسلم لغرناطة محمد الثاني عشر، خرج من الأندلس سنة 1492، في نفس السنة التي قام فيها فيها كرستوفر كولومبوس برحلته إلى أمريكا. وضع الانتصار المسيحي حدا لسبعمائة سنة من الروابط بين جنوب إسبانيا ومراكز الحضارة في الشرق. وتم إجبار المسلمين واليهود على التنصر أو الاختيار بين الموت أو الطرد.

سنة 1495، التقى ممثّلا التاجين البرتغالي والإسباني لاقتسام العالم بينهما. في اتفاقية توردیسیلاس، امتلكت البرتغال كل ما يقع بين خط الطول بين جزر الرأس الأخضر وسط المحيط الأطلسي، والأراضي الجديدة التي اكتشفها كولومبوس. تم تقسيم الجانب الآخر، الشرقي، من العالم بموجب معاهدة سرقسطة عام 1529، على طول خط الزوال الذي يعكس الجانب المتفق عليه في توردیسیلاس. في كلتا المناسبتين، شارك البابا في روما. وفق لاعتقاد السائد، بم أنّ الرب هو الذي منح الأرض للبشرية، فإن ممثّله وحده هو الذي يملك سلطة الموافقة على تقسيمها، وكانت المعاهدة من الأمثلة الأولى لاستخدام علم تم اختراعه في أوروبا - رسم الخرائط - كوسيلة للسيطرة على العالم.

سقطت إفريقيا والمحيط الهندي والبرازيل في يد البرتغاليين، في حين حازت إسبانيا بقية الأمريكيتين، وكذلك الفلبين على سبيل المثال. عندما استحوذت الجمهورية الهولندية وإنجلترا على جزء كبير من التجارة العالمية في القرن السابع عشر، أصبحت معاهدة توردیسیلاس غير ذات صلة. لأوّل مرّة عبر معاهدة توردیسیلاس التقت القوى الأوروبية لتقسيم العالم بينها بطريقة "منظّمة ومتحضرة." في القرن التاسع عشر، تمّ تقسيم إفريقيا والصين إلى حدّ كبير بنفس الطريقة. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، اجتمعت الولايات المتّحدة والاتحاد السوفيتي لتحديد "مناطق نفوذ" كل منهما. لم يطلب سكان المناطق المقسّمة رأيهم في أي من هذه المناسبات. 183 كانت الحروب في الأمريكيتين مجرّد امتداد للحروب التي خاضوها

بالفعل في إسبانيا. لم يكن العرب ولا "الهنود" مسيحيين، ومثل العرب كان الهنود أعداء يجب هزيمتهم.

- **أوروبا مركز النظام الدولي من الاكتشاف إلى الاستعمار**

لعلّ من أسباب انتشار النظام الدولي الأوروبي هو الطريقة التي اكتشف فيها الأوروبيون الأقاليم غير الأوروبية بداية ثم احتلالها وامتلاكها، وهي ملخص لقصّة الإمبريالية والاستعمار. كانت أوروبا نظاماً دولياً يدور حول نفسه، غير مهتم بما يجري خارج القارة. 179 أبحت أوروبا ثرية وقوية ومؤثرة على باقي العالم. في النصف الأول للقرن الخامس عشر، شرع الأوروبيون في الإبحار بعيدا إلى شواطئ إفريقيا الغربية. بداية من نهاية القرن الثامن عشر، أدى تطور الاقتصاد والصناعة إلى أن تصبح المجتمعات الأوروبية مجتمعات حديثة، في ثلاثة اتجهات: التمدن، التصنيع والدمقرطة.

احتاج الأوروبيون إلى المواد الخام للبضائع كانوا ينتجون وغالبا ما يمكن العثور على هذه الموارد خارج أوروبا نفسها. كان المنتجون الأوروبيون بحاجة إلى إيجاد المزيد من الأشخاص المستعدين لشراء كل الأشياء التي كانت مصانعهم تصنّعها. كان الأمل في أن يتم العثور على هؤلاء المستهلكين في الهند، على سبيل المثال، أو في الصين.

لقد اندهش الأوروبيون من ثروة البلدان التي اكتشفوها، وسلطة حكامهم وجميع الأشياء الغريبة التي لم يعرف عنها أحد في أوروبا. اكتشف التجار الأوروبيون أنه كان هناك

الكثير من الأموال التي يمكن جنيها لأولئك الذين يمكنهم إرضاء هذا السوق. لمتابعة نشاط التجارة المربحة شرع الأوروبيون في إقامة مستوطنات لهم في تلك الأقاليم البعيدة/ كما في الأمريكيتين، بينما اكتفوا بمراكز تجارية صغيرة في آسيا.

ما كان يبحث عنه الأوروبيون أكثر من أي شيء آخر في العالم الجديد كان الذهب، وقد احتوت أوصاف كولومبوس الخاصة لاكتشافاته على إشارات لا حصر لها لمقدار الذهب الذي تحتويه القارة الجديدة. كان يعلم أن هذه كانت أفضل طريقة لجعل الملوك الأوروبيين يدعمون المزيد من رحلات الاستكشاف. كانت الفضة من بوتوسي هي التي دفعت جميع ديون إسبانيا، وموّلت جيوشها وكنائسها في أوروبا وسمح للبلد بالاستمرار في "رحلات التسوق" في آسيا. وانتشرت العملات المعدنية الإسبانية - بيزو دي أوشو الشهير، "القطع الثمانية" - كانت عملة عالمية مقبولة في كل مكان في العالم.

- **دور الاستعمار والاستعباد في التاريخ العالمي**

وفي النهاية، أدّى الاحتلال الأوروبي للأمريكيتين إلى إبادة جماعية، فقد قُتل بعض السكان الأصليين في مواجهات عسكرية، لكنّ الكثير منهم عملوا حتى الموت في المناجم أو في المزارع، لكن الغالبية العظمى من الناس ماتوا نتيجة الأمراض التي نقلها الرجل الأوروبي. كانت هذه الأمراض موجودة منذ فترة طويلة في أوروبا، وكان الأوروبيون قد تكيّفوا معها، لكنّها كانت مميتة بالنسبة لشعوب الأمريكيتين. وتشير التقديرات إلى أنّ 80

في المائة من السكّان الأصليين لأمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية قد لقوا حتفهم نتيجة لذلك.

ونظرا لعدم كفاية أعداد السكّان الأصليين الذين يمكنهم القيام بالعمل البدني الذي ينطوي عليه استغلال الثروة الطبيعية للقارة، بدأ الأوروبيون في استيراد العبيد من إفريقيا، الذين تم بيعهم لهم في كثير من الأحيان من قبل ممالك غرب إفريقيا. من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، تمّ نقل حوالي 12 مليون من العبيد الأفارقة قسراً عبر المحيط الأطلسي. على الرغم من أن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا 8 حظرت رسميًا استيراد العبيد في وقت مبكر من عام 1807، إلا أن التجارة الدولية في العبيد تم حظرها فقط في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وألغيت العبودية نفسها أخيرًا في الولايات المتحدة في عام 1865 وفي البرازيل ليس حتى عام 1888.

وبقدر ما يتعلق الأمر بأمريكا الشمالية، فقد استوطنها في الأصل الهولنديون والإنجليز والفرنسيون، ولكن في النهاية كان المستوطنون الإنجليز هم من سيطروا عليها. كانت نسبة كبيرة من المستوطنين الأوائل أفرادًا من أقليات دينية مختلفة - ما يسمى بـ "البيوريتانيين" - الذين لجأوا إلى هناك بعد الحرب الأهلية الإنجليزية، 1642-1651. أطلقوا عليها اسم "نيو إنجلاند". أشار إليها الأوروبيون باسم terra nullius، وهي كلمة لاتينية تعني "أرض لا أحد" أو الأرض التي لا يملكها أحد، وقد تكون الأرض مأهولة لكنها ليست تابعة لأي

دولة. كان الأوروبيون يعتقدون بأنّ الأرض التي ليست تابعة أي أحد كانت موجودة للاستيلاء عليها. كانت إرادة الله أن يتولوا مسؤولية العالم الجديد. وتولوا المسؤولية فعلوا.

بمعنى ما، كان الاكتشاف الأوروبي للأمريكيتين مصدر إلهاء، بعد كل شيء، أراد الأوروبيون الذهاب إلى شرق آسيا. من هذا المنظور، يعتبر عام 1498 أكثر أهمية من عام 1492. وفي عام 1498 قام القبطان البحري البرتغالي فاسكو دي جاما بتدوير رأس الرجاء الصالح، في أقصى جنوب إفريقيا، وبدأ في شق طريقه صعودًا إلى الساحل الشرقي لإفريقيا. هنا التقى الأوروبيون بتجار من عمان واليمن وغوجرات. في الواقع، إذا كان الأوروبيون قد وصلوا قبل نصف قرن فقط، لكانوا قد التقوا بالتجار الصينيين هنا أيضًا. وصل دي جاما إلى ولاية كيرالا في جنوب الهند في مايو 1498، ومن هناك سرعان ما بدأت السفن البرتغالية في استكشاف موانئ أخرى حول المحيط الهندي. هذه هي الطريقة التي تعامل بها الأوروبيون مع "جزر التوابل،" الأرخبيل الشاسع في ماليزيا وإندونيسيا اليوم حيث نمت بهارات متنوعة غريبة. سرعان ما طور الأوروبيون طعم جوزة الطيب والقرنفل والهيل والفلفل الأسود والصولجان - والتي ساعدت جميعها في إضفاء نكهة على النظام الغذائي الأوروبي اللطيف المعروف. وسرعان ما استمرت السفن الأوروبية في المحيط الهادئ أيضًا، متجهة شمالًا إلى الصين واليابان. أنشأ البرتغاليون مستودعات تجارية في جوا في الهند عام 1510؛ ملقا في ماليزيا عام 1511؛ وفي ماكاو في الصين عام 1557. لم تكن هذه

مستعمرات بالمعنى الكامل، بل موانئ تمكنهم من التجارة مع السكان المحليين وتخزين البضائع وإصلاح سفنهم.

وسرعان ما تبع البرتغاليون الإسبان، ففي 1565 أبحر الغزاة من المكسيك إلى الفلبين حيث أسسوا مستعمرة تعرف باسم "جزر الهند الشرقية الإسبانية" وعاصمتها مانيلا. كما زار الإسبان تايوان وجنوب الصين. كان الاقتصاد الإسباني في ذلك الوقت متخلفًا تمامًا، لكن اكتشافهم للفضة في الأمريكيتين سمح لهم بتجاهل هذه الحقيقة. في عام 1602، تم إنشاء أول شركة متعددة الجنسيات حقًا Vereenigde Oostindische Compagnie وهي شركة الهند الشرقية الهولندية في هولندا. لقد وسعت المركبات العضوية المتطايرة، كما كانت تُعرف، أسواق المنتجات التي اكتشفها البرتغاليون وربطت جميع أنحاء العالم في سوق عالمي واحد. وسرعان ما تمّ إنشاء شركات تجارية مماثلة في جميع أنحاء أوروبا.

كان القرن السابع عشر هو الوقت الذي أصبح فيه الحكام الأوروبيون يطلقون على أنفسهم على نحو متزايد لقب "السيادة"، مما يعني أن لديهم ادعاءات لممارسة السلطة العليا داخل الأراضي التي اتخذوها لتكون ملكهم. من أجل إضفاء المصداقية على هذا الادعاء الباهظ إلى حد ما، احتاج الملوك إلى الموارد، وهذا ما وفّرته التجارة مع شرق آسيا. لسبب واحد، تم منح كل شركة تجارية احتكارًا للتجارة مع جزء معين من العالم. أو بالأحرى، تم بيع هذه الاحتكارات من قبل الملوك وبالتالي شكلت مصدر دخل جيد لهم. وسرعان ما

استطاع الملوك أيضًا اقتراض الأموال من الشركات التجارية. وقد حقّقوا أرباحًا رائعة، وكان لديهم فائض نقدي يحتاجون إليه للاستثمار. وعلى عكس ملوك فرنسا الذين اشتهروا بالتخلّف عن سداد هذه القروض، فإنّ ملوك إنجلترا كانوا أقلّ إسرافًا. وكان لتطوّر الشبكات التجارية العالمية تأثير عميق على الاقتصاد العالمي وكان له آثار سياسية أيضًا، أبرزها إشراك الدول الأوروبية في المشروع الاستعماري والإمبراطورية.

فأنشأ الهولنديون مستعمرة باتافيا في إندونيسيا، واحتلّ الإسبان الفلبّين، لكن لم يكن هناك مجال للأوروبيين لشن حرب بنجاح على ممالك الشرق القوية. فقد كانت الصين والهند واليابان وصيام وإمبراطورية موغال وبلاد فارس والعثمانيون أغنياء وأقوياء، وجيوشهم قوية للغاية، وكان الأوروبيون قليلون من حيث العدد. كان التجار البرتغاليون قد فرضوا قبضتهم القوية على التجارة في المحيط الهندي، منهين تقليد المنافسة والتجارة الحرة، لكن هذا لم يقلق حكّام آسيا. وظلّ الأوروبيون، كما في العصور الوسطى، مندهشين من عجائب الشرق، وكانت الإمبراطوريات الشرقية موضع إعجاب كبير لثروتها وقوّتها.

- حرب السنوات السبع

كانت حرب السنوات السبع 1756-1763 تلك الحرب العالمية التي لا يسمع عنها. لقد وقعت في أوروبا بين بريطانيا وفرنسا وحلفائهما، لكنّها امتدّت إلى قارّات أخرى أيضًا. كان الصراع شرسًا بشكل خاصّ في أمريكا الشمالية حيث أنشأت كلّ من بريطانيا وفرنسا

مجتمعات من المستوطنين لرعاية مصالحها التجارية القوية. دارت حرب السنوات السبع بشكل مكثّف في الهند أيضاً حيث كان المستوطنون أقلّ عددًا، لكن المصالح التجارية كانت قوية. في كلتا الحالتين انتهت الخلافات بانتصارات لبريطانيا. كانت إحدى النتائج طويلة المدى للحروب في أوروبا هي أنّ المستوطنين الأوروبيين جاءوا بنزعة استقلالية تجاه حكوماتهم الأصلية.

في الواقع، كانت العلاقات بين المستوطنين الأوروبيين ووطنهم الأمّ معقدة دائمًا. حاولت الحكومة الإسبانية، على سبيل المثال، الحفاظ على بعض النظام في الإمبراطورية وسعت إلى منع الغزاة من إساءة معاملة السكّان الأصليين. ومع ذلك، كان الغزاة يحتقرون مثل هذه السياسات واستاءوا من تدخّل مدريد فيما اعتبروه شؤونهم الخاصّة. عندما احتلّت إسبانيا نفسها خلال الحروب النابليونية، 1808-1814، اغتنم المستوطنون الفرصة وأعلنوا الاستقلال تباعاً: كولومبيا في 1810، وفنزويلا في 1811، والأرجنتين في 1816، والبيرو في 1821 وبوليفيا في 1825 وما إلى ذلك. حدث شيء مشابه في حالة أمريكا الشمالية.

في الأجزاء الجنوبية من القارّة الأمريكية، أنشأ البريطانيون مزارع كبيرة حيث قاموا بزراعة التبغ والسكّر والقطن للتصدير. في القرن الثامن عشر، أثبتت هذه المنتجات نجاحًا غير عادي. فجأة بدأ الناس في جميع أنحاء العالم بالتدخين وتناول الحلوى وارتداء الملابس القطنية. للتعويض عن النقص في العمالة الرخيصة، بدأ المستوطنون في أمريكا الشمالية في

استيراد العبيد الأفارقة. عندما تمّ إلغاء العبودية في نهاية المطاف في 1865، كان هناك ما يقرب من أربعة ملايين من العبيد في الولايات المتحدة. اليوم، يُعرّف حوالي 13 بالمائة من سكان الولايات المتحدة، حوالي أربعين مليون شخص، أنفسهم على أنهم "أمريكيون من أصل أفريقي." في أمريكا الشمالية البريطانية، كانت هناك ثلاث مجموعات متميزة تمامًا من المستوطنين، أصحاب المزارع في الجنوب، والمستوطنين البيوريتانيين في نيو إنغلاند، والأشخاص الذين عاشوا في مدن ناشئة مثل نيويورك وبوسطن.

أعلنت ثلاثة عشر مستعمرة استيطانية في أمريكا الشمالية استقلالها عن بريطانيا عام 1776. ونتيجة لذلك، بحلول عشرينيات القرن التاسع عشر، أصبحت الإمبريالية الأوروبية إلى حدّ كبير تبدو شيئًا من الماضي. نظر الناس في بريطانيا إلى الوراء بحزن إلى الأيام التي كانت لديهم فيها إمبراطورية. كان لا يزال هناك كندا، ولكن هذه المنطقة كانت في الأساس مصدر قلق للتجار المشاركين في تجارة الفراء؛ وكانت هناك الهند أيضًا، لكنّها كانت تحكمها شركة الهند الشرقية ولم تكن مستعمرة بريطانية. الدول الأوروبية الأخرى لديها إمبراطورية أقل.

نتيجة لحرب السنوات السبع، فقد الفرنسيون معظم مواقعهم التجارية، وخسر البرتغاليون البرازيل، على الرغم من احتفاظهم بمراكزهم التجارية في إفريقيا وآسيا؛ كان

هناك مستوطنون هولنديون في جنوب إفريقيا، لكنّ الوجود الهولندي في بقية العالم كان بدافع الضرورات التجارية، وليس الإمبريالية.

بعد مائة عام، في وقت الحرب العالمية الأولى، كانت جميع أنحاء إفريقيا وكثير من آسيا في أيدي الأوروبيين. عاد الاستعمار للانتقام. من أجل فهم هذا التحول في الأحداث، يجب أن نفهم التغييرات التي حدثت في أوروبا نفسها.

- **الثورة الصناعية كمحرك للمشروع الاستعمارية أو الموجة الثانية من المشروع الامبريالي**

في نهاية القرن الثامن عشر، تمّ اختراع طرق جديدة لتصنيع البضائع في أوروبا، كانت الأشياء تُصنع الآن في المصانع والآلات، التي تعمل بالبخار أولاً ثم بالكهرباء. قبل فترة طويلة كانت السلع الرخيصة المنتجة بكميات كبيرة تغرق الأسواق الأوروبية. ومع ذلك، أنتجت المصانع أكثر بكثير مما يمكن أن يشتريه المستهلكون الأوروبيون، ولهذا السبب فكّر المنتجون في العثور على عملاء جدد. هناك حاجة أيضًا إلى مصادر جديدة للمواد الخام، وهي موارد لا يمكن العثور عليها في كثير من الحالات إلا في قارّات أخرى. هذه الدوافع الاقتصادية تعني أن الأوروبيين أخذوا اهتمامًا متجددًا بالعالم. كانت النتيجة النهائية هي **موجة ثانية** من التوسّع الإمبراطوري وخلق نظام دولي تهيمن عليه أوروبا بالكامل.

كان البريطانيون هذه المرّة هم من تولى القيادة. لقد بدأت الثورة الصناعية في بريطانيا بعد كلّ شيء، وكانت المحطّات التجارية والبؤر الاستيطانية التي بقيت في أيديهم هي التي

وفّرت لهم السبق. كان لدى البريطانيين أيضًا قوّة بحرية لا يعلى عليها. علاوة على ذلك، طوال القرن التاسع عشر، هيمن التجّار الأحرار على الحكومة البريطانية والسياسيين الذين أرادوا إلغاء الرسوم الجمركية والتأكّد من أنّ التجّار البريطانيين يتمتّعون بحرية الوصول إلى الأسواق الخارجية. كان من السهل على البريطانيين أن يؤيّدوا التجارة الحرّة لأنّهم كانوا أصحاب المصانع التي تنتج السلع بأرخص الأسعار.

كانت الاستراتيجية التي اتّبعها البريطانيون هي نفسها دائمًا. الاقتراب من حاكم الدولة غير الأوروبية وتقديم طلب الوصول بحرية إلى عملائها وموادّها الخام، فإذا قوبلوا بالموافقة فإنّ البريطانيين سينشئون المؤسّسات ويشرعون في الاستغلال. ولكن إذا قوبلوا بالرفض فإنّهم سيهدّدون بالعمل العسكري. ففي بعض الحالات استسلم السكّان الأصليون في النهاية ووقّعوا على معاهدة تجارية، غالبًا ما تكون غير متكافئة. وفي حالات أخرى، عندما يتمسّك السكّان الأصليون بموقفهم، كانت النتيجة الحرب.

كان لابدّ من جعل الاستثمارات البريطانية في الخارج أكثر أمانًا، وتوضّح الهند هذا المنطق. فقد كان لدى البريطانيين في البداية مراكز تجارية صغيرة فقط، ولكن خلال القرن الثامن عشر انغمسوا في الصراعات التي ميّزت السياسة في الإمبراطورية المغولية المجزّأة. أقامت شركة الهند الشرقية تحالفات مع أمراء هنود أقوياء. كانت الجزرة التي علّقها البريطانيون أمامهم هي الوصول إلى الأسواق العالمية، فيما كانت العصا هي الجيش الذي

أحضروه معهم. في معركة بالاشي أو بلاسي في 1757، هزمت شركة الهند الشرقية حاكم البنغال وحلفائه الفرنسيين. ونتيجة لذلك، وجد البريطانيون أنفسهم الوسيط الرئيسي في شبه القارّة الهندية. خسر البريطانيون الحروب ليس فقط في بورما وأفغانستان، ولكن ضدّ الأشانتي وشعب بنين، وفي عام 1857 اقتربوا من طردهم من الهند.

في هذه الأثناء بدأ الفرنسيون غزوهم الاستعماري لشمال إفريقيا. تم احتلال أجزاء من الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وتمّ إلحاقها بالدولة الفرنسية. لكن هنا أيضًا واجه الأوروبيون مقاومة شرسة واستغرق الأمر من الفرنسيين أكثر من عشر سنوات لغزو الجزائر. نظرًا لأنّهم غالبًا ما كانوا غير قادرين على هزيمة أعدائهم على الفور، استخدم الفرنسيون ما وصفوه بفخر بأنّه "تكتيكات بربرية،" بحثًا عن طريقة أكثر فاعلية لمحاربة الجزائريين، فطوّر الجنرال توماس روبرت بوجو، الحاكم العامّ للجزائر طريقة جديدة للحرب عرفت باسمه le système Bugeaud، والتي قال إنها أكثر ملاءمة للظروف الإفريقية.

كانت السمة الرئيسية للنظام هي الأرض المحروقة، وهي تدمير جميع الموارد التي دعمت حياة وسبل عيش المجتمع العربي ومحاصيلهم وبساتينهم وماشيتهم. ويعتقد بوجو بأنّه لا يمكن إخضاع العدو إلا بإعلان الحرب على المدنيين وإرهابهم وتجويعهم. ومع ذلك، أصرّ على أنّه لا يوجد شيء غير أخلاقي في مثل هذه الأساليب. بعد كلّ شيء، كان هدف فرنسا هو حضارة الأفارقة، حيث أوضح للبرلمان في باريس قائلا: "إنّ الحرب ليست من

صنع الخير، بل هي من صنع الإنسان، من يريد الغاية يشاء الوسيلة." خلص الأوروبيون إلى أنّ الحروب الاستعمارية لم تكن على الإطلاق مثل الحروب في أوروبا. يجب أن يكون للحرب الاستعمارية "أهداف تربوية،" علينا أن نضرب بقوّة وبطريقة مدمّرة لم يجرؤ أحد على مقاومتها. كان نظام بوجو مثالاً على الإرهاب الذي ترعاه الدولة.

- **حرب الأفيون**

لقد أراد البريطانيون الوصول إلى الصين لتصدير أقمشتهم القطنية وأدواتهم الفضية، لكنّهم أرادوا بالإضافة إلى ذلك بيع الأفيون. كان الأفيون هو الحلّ للمشكلة الدائمة المتعلّقة بما يجب بيعه للصينيين. كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تزرع الأفيون في الهند، وسرعان ما كانت الصادرات إلى الصين مزدهرة. وكانت المشكلة الوحيدة أنّ الأفيون كان غير قانوني في الصين. عندما حاولت السلطات الصينية وقف التجارة انخرط البريطانيون في حربين، حرب الأفيون الأولى 1839-1842، وحرب الأفيون الثانية 1856-1860. خسرت الصين في كلتاهما واضطرّت في النهاية إلى فتح جميع موانئها أمام التجارة الخارجية، بما في ذلك تجارة الأفيون.

لم يعد النظام الدولي التقليدي لشرق آسيا، الذي كان الصين في مركزه، أكثر من ذلك. ارتكب الأوروبيون هذا العمل الهمجي من أجل "حضارة" الصينيين. لقد عزلت الصين نفسها وفشلت في مواكبة الأحداث العالمية، لكنّ الأوروبيين الآن بصدد مساعدتهم،

من خلال شن الحرب على الصينيين، كانوا سيجبرونهم على الانفتاح على السوق العالمية والتأثيرات من الخارج. كان تدمير ياومينغوان عملًا بربريا لكنّه حاسم. أرعب الدمار الإمبراطور والصينيين وجعلهم يدركون أنّهم عاجزون ضدّ الغزاة.

وقد تمّ فتح السوق اليابانية بنفس الطريقة تقريبًا، على الرغم من أنّ التهديدات كانت كافية، وكان الأمريكيون هم من أخذوا زمام المبادرة. منذ أوائل القرن السابع عشر، كان لليابان تفاعلات محدودة مع بقية العالم. اقتصرت جميع التجارة الرسمية على مدينة واحدة فقط، هي ناغازاكي في أقصى الجنوب. في 1853، ظهر الأمريكي ماثيو بيري في ميناء إيدو على متن زورق مدفوع بالبخار، مطالبًا اليابان بفتح أسواقها. في البداية في حيرة من أمرهم، بدأ اليابانيون في تقديم التنازلات. في نهاية المطاف، انهارت سياستهم في العزلة. كانت القوّة المهمّة وراء التغيير في السياسة هي الدايميو، الحكّام المحليون، وخاصّة أولئك الموجودون في جنوب البلاد الذين كانوا منخرطين بالفعل في التجارة السرية مع العالم الخارجي لفترة طويلة.

بفضل الوتيرة العالية للتنمية الاقتصادية، اكتسب الأوروبيون شعورًا جديدًا بالثقة بالنفس. وقد أدّى ذلك إلى تغيير جذري في نظرتهم لبقية العالم، وآسيا على وجه الخصوص. من أولى الاتصالات المتعثّرة في العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان الأوروبيون معجبين بآسيا وتطلعوا إليها. ومع ذلك، في الجزء الأول من القرن التاسع عشر، بين عشية وضحاها تقريبًا، أصبحت آسيا موضع ازدراء. كانت المشكلة، أكثر من أي شيء

آخر، أنّ آسيا فشلت في التطور على الطريقة الأوروبية. لقد فوّتت آسيا الثورة الصناعية. فقد قرّر الأوروبيون أن بلداً كالصين مثلاً "راكد" و"عالق في الماضي؛" وأنّه لم يحرز أيّ تقدّم ونتيجة لذلك لا يمكن القول أنّ لها تاريخًا صحيحًا. من أجل إعطاء مظهر من الصحّة العلمية لمثل هذه الادّعاءات، أشار العديد من الأوروبيين إلى علم الأحياء.

أخطأوا في قراءة كتاب "أصل الأنواع" لتشارلز داروين، الذي نُشر عام 1859، وقرروا أن "الأجناس" المختلفة في العالم كانت عالقة في صراع لا مفر منه. لقد أثبت الأوروبيون تفوقهم وبالتالي يستحقون السيطرة على كل الآخرين. كان من المقرر أن يكون "الأجناس الأدنى" خدمًا لهم، وسيتم تدمير الأشخاص الأقل نموًا على الإطلاق. لمساعدة التاريخ على طول الطريق، نفذ الأوروبيون عمليات إبادة جماعية ضد شعب تسمانيا، وتيرا ديل فويغو، وشعب هيريرو في ناميبيا، وغيرهم الكثير.

- **القوى الاستعمارية الجديدة:**

تشمل هذه المرحلة سعي كل من إيطاليا وألمانيا للتوسّع الاستعماري إلى القوى التقليدية بريطانيا وفرنسا، وكذا بروز حركات التحرر الوطني في آسيا وإفريقيا.

اتحدت إيطاليا في عام 1861 وألمانيا في عام 1871. كان كلا البلدين - ألمانيا على وجه الخصوص - في صعود وأرادوا دورًا أكبر، وقولًا أكبر، في الشؤون العالمية. كانت إحدى طرق الدولة لتأكيد نفسها هي الحصول على المستعمرات. أصبحت الممتلكات

الاستعمارية رمزًا لمكانة القوة العظمى، وغالبًا ما أثبتت الدول القومية الأوروبية أنّها مستعمرة عدوانية للغاية. عندها أصبحت إفريقيا لأوّل مرة موضع تركيز كقارة للاستكشاف والاستغلال. اقتصر الوجود على الموانئ التجارية الصغيرة على طول الساحل، وكان الاستثناء الوحيد هو الجزء الجنوبي من القارّة حيث استقرّ المزارعون الهولنديون.

تغيّر هذا تدريجيًا خلال القرن التاسع عشر عندما ذهب المغامرون والمبشرون الأوروبيون في رحلات عبر الأدغال، غالبًا بدعم من "المجتمعات الجغرافية الوطنية" في بلدانهم الأصلية. على خطاهم جاء عملاء لشركات تجارية كبيرة وجنود أوروبيون ومستوطنون ومستعمرون. وجد الأوروبيون الذهب والعاج ، وكذلك الماس والنحاس وزيت النخيل والكاكاو والموز وغيرها من "المنتجات الاستعمارية".

لتنظيم هذا "التدافع من أجل إفريقيا" الذي التقت به جميع البلدان ذات التطلعات الاستعمارية في مؤتمر في برلين عام 1884. بعد عام 1871، دخلت الامبريالية الأوروبية في إفريقيا مرحلة جديدة. حتى هذا الوقت، كانت مجموعات صغيرة فقط من المستثمرين والمستكشفين والمبشرين تهتم بهذا الجزء من العالم. باستثناء الاستيطان الهولندي في جنوب إفريقيا والفرنسيين في الجزائر، اقتصر وجودهم على عدد قليل من الموانئ التجارية على طول الساحل. بعد عام 1871، بدأ الأوروبيون فجأة في استكشاف واستعمار المناطق الداخلية أيضًا. وسرعان ما انقسمت القارّة بأكملها فيما عدا إثيوبيا.

اتّجهت فرنسا إلى إفريقيا كوسيلة للتعويض عن الخسارة المهينة في الحرب ضدّ ألمانيا عام 1871. وأصبحت بريطانيا مهتمّة بأفريقيا بشكل أساسي كوسيلة لكبح الطموحات الفرنسية. كانت ألمانيا، التي توحّدت فقط في عام 1871 تهدف إلى اللحاق بالقوى الأوروبية الأخرى. كانت الامبراطورية العثمانية التي حكمت حتى هذه اللحظة جزءًا كبيرًا من شمال إفريقيا، أضعف من أن تدافع عن ممتلكاتها السابقة. في مؤتمر في برلين في نوفمبر 1884 علّقت على حائط قاعة المؤتمر خريطة كبيرة لإفريقيا لتقاسمها بين الأوروبيين في غياب أي إفريقي. وكان الفائز الأكبر هو ملك بلجيكا ليوبولد الثاني الذي تمكّن من الاستحواذ على الكونغو بالكامل كملكية شخصية له.

في أماكن أخرى من العالم، أضاف الفرنسيون الهند الصينية إلى إمبراطوريتها المتنامية واحتلّت بريطانيا بورما وماليا. وفي غضون ذلك، تحرّك الروس إلى آسيا الوسطى ودفعت الولايات المتحدة غربًا عبر سهول أمريكا الشمالية العظيمة باتّجاه المحيط الهادئ. في عام 1914 مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، وجد الأوروبيون أنفسهم مشغولين بأمور أخرى، وفي عام 1945، بحلول نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت الإمبراطوريات الاستعمارية مفارقة تاريخية. دمّرت أوروبا الحربان العالميتان وأصبحت المستعمرات ترفاً باهظ الثمن، وكان للاستعمار القليل من الدعم العام، كما اتسعت المقاومة المحلية للحكم الاستعماري. كما

أدرك الأوروبيون أنهم عندما يواجهون عدوًا محليًا مصممًا على القتال من أجل استقلاله، فإنهم سيخسرون دائمًا، عاجلاً أم آجلاً.

بدأ إنهاء الاستعمار في مكان بعيد الاحتمال: جزيرة سانت دومينغ/هايتي في البحر الكاريبي، وهي مستعمرة فرنسية197 كان يمتلك فيها حوالي أربعين ألفًا من الأوروبيين المعمرين حوالي نصف مليون عبد إفريقي. في 22 أوت 1791، بدأ العبيد تمرّدًا انتهى باستقلال هايتي في عام 1804. قدمت الثورة الفرنسية عام 1789 للعبيد لغة يصوغون بها مظالمهم، لقد أرادوا أيضًا الحرية، والمساواة والإخاء. إنّ التاريخ اللاحق لهايتي تاريخ حزين، فقد انتهت بحلول القرن التاسع عشر طفرة السكر، وأثبتت النخبة الجديدة في البلاد أنها سلطوية وفاسدة. غزت الولايات المتحدة الجزيرة في 1915 واحتلتها حتى عام 1934. منذ عام 1945، شهدت البلاد عددًا من الديكتاتوريين، ووقعت فيها انقلابات عسكرية متتالية، وتعتبر هايتي اليوم أفقر دولة في نصف الكرة الغربي.

بدأ صراع استقلال مماثل في الهند سنة 1857. وبدءًا من أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وتسارع في الستينيات، استقلت مستعمرة الواحدة تلو الأخرى، وبحلول عام 1970 كان هناك القليل من المستعمرات المتبقية. الهند الصينية. ومع ذلك، في معركة ديان بيان فو في عام 1954، هُزموا بشكل حاسم. من هذا الوقت فصاعدًا، بدأت الولايات المتحدة تتولى تدريجياً المسؤولية عما كان يُعرف في الستينيات باسم "حرب فيتنام". ومع

ذلك، فقد هُزمت الولايات المتحدة أيضًا في نهاية المطاف على يد الفيتناميين وطُردت جيوشها من الهند الصينية في عام 1975.

نشب صراع دموي آخر خاضه الفرنسيون في الجزائر. هنا، اعتبرت مجموعة كبيرة من المستوطنين الأوروبيين، الذين يبلغ تعدادهم أكثر من مليون شخص، الجزائر وطنهم لأجيال. بدأت ثورة مسلحة في عام 1954 وانتهت باستقلال البلاد في عام 1962. وفي غضون ذلك، كان البريطانيون يقاتلون حرب العصابات في كل من كينيا ومالايا. هنا أيضًا كانت الخلافات دامية، لكن حركات الاستقلال انتصرت في النهاية. هذه هي الطريقة التي أصبحت بها الطريقة الأوروبية لتنظيم السياسة الدولية هي المعيار العالمي والنموذج الأوروبي للدولة هو الوحدة السياسية الوحيدة القابلة للحياة. كانت هذه النتيجة نتيجة للاستعمار، لكن الاستعمار نفسه لم يكن في الواقع السبب، فالطريقة الوحيدة لتصبح دولة مستقلة، أي أن تصبح دولة مستقلة وفق النموذج الأوروبي.

واجهت الدول المستقلّة صعوبات، فقد كانت المؤسسات السياسية ضعيفة للغاية، والاقتصاد لا يتطور، أو لا يتطور بالسرعة الكافية. في كثير من الحالات تولى الحكم أشخاص تلقوا تعليمهم في المدارس الاستعمارية ويثق بهم الأوروبيون "كواحد منهم." وكانت النتيجة سلسلة طويلة من "الدول الفاشلة"، أي الدول التي فشلت في الارتقاء إلى مستوى المعايير

الأوروبية. لم يُسمح لتاريخ العالم غير الأوروبي ما قبل الاستعمار أبدًا بلعب دور في عالم الدول المستقلة الذي تأسس الآن.

العلاقات الدولية في الحرب الباردة

كانت الحرب الباردة فترة تاريخية امتدت من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى انهيار الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينيات. شهدت هذه الفترة صراعًا أيديولوجيًا واقتصاديًا وعسكريًا حادًا بين القوتين العظميين في العالم آنذاك: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. أدى هذا الصراع إلى تقسيم العالم إلى معسكرين متنازعين، وتأثير عميق على العلاقات الدولية.

وانتهت الحرب الباردة مع انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991 بسبب العديد من العوامل، بما في ذلك التدهور الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي، وفشل النظام الشيوعي في تلبية احتياجات الشعب، وتزايد الشعور بالاستياء في الدول التابعة للاتحاد السوفيتي.

أسباب الحرب الباردة

- الاختلاف الإيديولوجي: كانت الولايات المتحدة تمثل النظام الرأسمالي، بينما كان الاتحاد السوفيتي يدافع عن النظام الشيوعي. هذا الاختلاف الأساسي في النظم السياسية والاقتصادية أدى إلى عدم الثقة المتبادل بين القوتين العظميين.
- سباق التسلح: أدى الخوف المتبادل من الهجوم النووي إلى سباق تسلح محموم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وقد تسبب هذا السباق في زيادة التوتر وتعميق الانقسام بين المعسكرين.

- صراع النفوذ: سعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى توسيع نفوذها في العالم، مما أدى إلى صراعات عديدة في مناطق مختلفة من العالم، مثل كوريا وفيتنام وأفغانستان.

ملامح العلاقات الدولية خلال الحرب الباردة

طبعت الحرب الباردة العلاقات الدولية طيلة قرابة النصف قرن، وكان من ملامحها:

- التحالفات العسكرية: تشكلت تحالفات عسكرية متعارضة، مثل حلف شمال الأطلسي (الناتو) بقيادة الولايات المتحدة، وحلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفيتي.

- الحرب الباردة في العالم الثالث: امتدت الحرب الباردة إلى العديد من دول العالم الثالث، حيث تدخلت القوتان العظميان لدعم الأنظمة الحليفة لهما.

- أزمات عالمية: شهدت فترة الحرب الباردة العديد من الأزمات التي هددت باندلاع حرب عالمية ثالثة، مثل أزمة برلين وأزمة الصواريخ الكوبية.

- سباق الفضاء: تنافست الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في سباق الفضاء، مما أدى إلى إنجازات علمية وتكنولوجية كبيرة.

وكان من آثارها التوتر المستمر، فقد عاش العالم في ظل تهديد حرب نووية مستمرة طوال فترة الحرب الباردة، وهو ما أدى إلى الإنفاق العسكري الهائل، مما أثر سلبًا على

الاقتصاد العالمي. كما أدى الصراع الأيديولوجي إلى تقسيم العالم إلى معسكرين متنازعين، مما أثر على العلاقات بين الدول. وقد انعكس الوضع على الدعم الأنظمة الدكتاتورية، فقد قدمت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الدعم للعديد من الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث.

تأثير الحرب الباردة على أوروبا

الحرب الباردة أثرت بشكل كبير على أوروبا، وتركت تأثيرات دائمة في السياسة، الاقتصاد، والثقافة.

1. التقسيم الجغرافي

تم تقسيم أوروبا إلى منطقتين رئيسيتين: أوروبا الشرقية تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي، وأوروبا الغربية تحت سيطرة الولايات المتحدة وحلفائها.[22] هذا التقسيم أدى إلى تشكيل الحدود الفاصلة المعروفة بـ"الحاجز الحديدي"، والتي كانت تمثل الفصام السياسي والاقتصادي بين الشرق والغرب.

[22] Europe in the Cold War - EU Learning - Carleton University , https://carleton.ca/ces/eulearning/history/europe-after-wwii/europe-in-the-cold-war/)

2. التحالفات العسكرية: تأسس حلف شمال الأطلسي (NATO) في عام 1949 كمحاولة لمقاومة التهديد السوفيتي على أوروبا الغربية. هذا الحلف أدى إلى تعزيز التحالفات العسكرية بين الدول الغربية وتعزيز الدفاع المشترك.

3. التحولات الاقتصادية: قدمت الولايات المتحدة برنامج مارشال لإعادة إعمار أوروبا الغربية الذي بدأ في عام 1948، هذا البرنامج ساهم في تعزيز الاستقرار الاقتصادي والسياسي في أوروبا الغربية.

4. الثورات والاضطرابات: شهدت أوروبا الشرقية العديد من الثورات والاضطرابات السياسية، مثل ثورة 1956 في المجر والانتفاضة الشعبية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا. هذه الأحداث كانت نتيجة للتوترات الاجتماعية والاقتصادية التي نشأت نتيجة للسيطرة السوفيتية.

5. التحولات السياسية: بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، شهدت أوروبا الشرقية تحولات سياسية كبيرة، بما في ذلك تحول العديد من الدول إلى ديمقراطيات حديثة واقتصادات رأسمالية.

نتائج نهاية الحرب الباردة في أوروبا

أدت نهاية الحرب الباردة في أوائل التسعينيات إلى تحولات جذرية في المشهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أوروبا. لقد كانت فترة من التغيير العميق والتحولات، حيث انتقلت القارة من عصر الانقسام والتوترات إلى عصر التعاون والاندماج.. ومن أبرز نتائجها:

- **توحيد ألمانيا**: بعد سقوط جدار برلين، تم توحيد ألمانيا الشرقية والغربية لتصبح دولة واحدة، وهو حدث تاريخي شكل علامة فارقة في نهاية الحرب الباردة.

- **توسيع الاتحاد الأوروبي**: شهد الاتحاد الأوروبي توسعًا كبيرًا بضم العديد من دول أوروبا الشرقية، مما أدى إلى زيادة نفوذه وتوحيد القارة اقتصاديًا وسياسيًا.

- **انتشار الديمقراطية**: انتشرت الديمقراطية الليبرالية في معظم دول أوروبا الشرقية، حيث تم الإطاحة بالنظم الشيوعية وإنشاء أنظمة ديمقراطية متعددة الأحزاب.

- **تراجع النفوذ الروسي**: تراجع النفوذ الروسي بشكل كبير في أوروبا الشرقية، حيث استقلت العديد من الدول السوفيتية السابقة وأصبحت ديمقراطيات مستقلة.

- **تحديات اقتصادية واجتماعية**: واجهت العديد من دول أوروبا الشرقية تحديات اقتصادية واجتماعية كبيرة بعد التحول إلى الاقتصاد السوقي، مثل ارتفاع معدلات البطالة والتضخم.

- **ظهور صراعات عرقية وإثنية:** شهدت بعض مناطق أوروبا، مثل يوغوسلافيا، صراعات عرقية وإثنية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

- **زيادة التعاون الدولي:** زاد التعاون الدولي بين الدول الأوروبية، مما أدى إلى تعزيز السلام والاستقرار في القارة.

تأثير الحرب الباردة على الشرق الأوسط

لقد تركت الحرب الباردة بصمة عميقة على الشرق الأوسط، حيث تحولت المنطقة إلى ساحة صراع بين القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. كان لهذا الصراع آثاراً بعيدة المدى على السياسة والاقتصاد والمجتمعات في المنطقة. وقد تركت الحرب الباردة آثارًا عميقة على الشرق الأوسط، حيث ساهمت في زعزعة الاستقرار، وتأجيج الصراعات، وتأسيس أنظمة سياسية استبدادية. وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة، إلا أن آثارها لا تزال مستمرة حتى اليوم، حيث تعاني العديد من دول المنطقة من آثار الصراعات والانقسامات التي نشأت خلال تلك الفترة.

ومن آثار الحرب الباردة على الشرق الأوسط:

- **تدخل القوى الخارجية:** استغلت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الصراعات القائمة في المنطقة لدعم أنظمة وحركات سياسية تتوافق مع مصالحها.

أدى هذا التدخل إلى زيادة حدة التوترات الطائفية والعرقية، وزعزعة الاستقرار في العديد من الدول.

- **سباق التسلح**: شجعت الحرب الباردة على سباق تسلح في المنطقة، حيث زودت القوتان العظميان الأنظمة الحليفة بالأسلحة الحديثة، مما زاد من خطر اندلاع حروب واسعة النطاق.
- **تأسيس تحالفات متعارضة**: أدى الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إلى تكوين تحالفات متعارضة في المنطقة. على سبيل المثال، دعمت الولايات المتحدة الدول العربية "المعتدلة" بينما دعم الاتحاد السوفييتي الدول العربية القومية واليسارية.
- **التدخل في الصراعات الداخلية**: تدخلت القوتان العظميان في الصراعات الداخلية للدول العربية، مثل الصراع العربي الإسرائيلي والحرب الأهلية اللبنانية، مما زاد من تعقيد هذه الصراعات.
- **تأسيس أنظمة سياسية استبدادية**: أدى دعم القوى الخارجية لأنظمة سياسية معينة إلى تأسيس أنظمة استبدادية في بعض الدول العربية.
- **تأثير على القضايا القومية**: استغلت القوى العظمية القضايا القومية في المنطقة لتحقيق أهدافها، مما أدى إلى تأجيج الصراعات القومية والعرقية.

- **التداعيات الاقتصادية**: أدى الصراع إلى تقلبات اقتصادية كبيرة في المنطقة، حيث كانت الدول العربية تعتمد بشكل كبير على تصدير النفط، الذي تأثر بتقلبات الأسواق العالمية.

ومن الأمثلة على تأثير الحرب الباردة في الشرق الأوسط:

- **مصر**: دعمت الولايات المتحدة مصر بعد حرب 1973، بينما دعم الاتحاد السوفييتي مصر في السابق.
- **أفغانستان**: تحولت أفغانستان إلى ساحة صراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، مما أدى إلى حرب أهلية طويلة الأمد.
- **إيران**: دعمت الولايات المتحدة شاه إيران، بينما دعم الاتحاد السوفييتي القوى المعارضة.
- **حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران.**
- **الصراع العربي الإسرائيلي**: استغلت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الصراع العربي الإسرائيلي لتحقيق أهدافها السياسية.